رواية

حمزة الحسن

صرخة البطريق

" هذا الاحتلال قديم وهو في الواقع حدث أقدم من تاريخه بوقت طويل، منذ أن تم تحويل الإنسان إلى حشرة".

. صرخة البطريق

" المخلوقات المحطمة والمفرغة من آدميتها لا يمكن أن تنتج حياة سوية أبداً، ولا أن تخرج لصد غزو حتى لو كان غزو جراد".

. صرخة البطريق

. "من هو البطل في هذه الحكاية؟"

. صرخة لبطريق

كان المطر يضرب النافذة بقوة في حين تلوح الثلوج على قمم الجبال البعيدة مع لون رماني هو انعكاس لغسق مسائي لا يُرى لكنه يترك فوق الجبال الثلجية البعيدة ذلك اللون المتوهج.

حين تظل الشمس مشرقة في المساء، وفي أيام صيفية حتى منتصف الليل وتسمى شمس منتصف الليل، تكسو الجبال بلون رماني محترق، وقبل أن يتلاشى هذا الوهج المشع بعد غروب الشمس، تحط كآبة ثلوج منعزلة تخترق عليه النوافذ.

البياض الثلجي المنتشر هو الشيء الوحيد الذي يملأ الأفق ويتلاشى كل شيء بما في ذلك الأشجار والمنازل التي لا يظهر منها غير دخان المداخن، حتى الجبال لا تظهر في بعض الأحيان، وتحط على الكون برية من البياض كما لو أن الأرض تتشكل بصورة مغايرة كل لحظة تحت الغمر الأبيض البدائي.

ذلك المساء كان المطر وحشياً ومنحرفاً وقوياً رغم الثلج المتراكم فوق الجبال البعيدة، فقرر فتح التلفاز بعد أن جلس في مقعده الطويل وسريره أحياناً، فرأى كما يرى في منام دبابتين أمريكيتين فوق جسر الجمهورية.

قرأ في شريط الأخبار المتحرك ان القوات الأمريكية قد عبرت بلدة الصيراوي جنوب بغداد، بعد أن اخترقت أدغال البلدة من مداخلها الجنوبية وهي الآن فوق جسر الجمهورية. قال يحدث نفسه: من الدكتاتورية إلى السجن، ومن الحرب إلى المنفى، ومن المنفى إلى الاحتلال؟

تركزت نظراته فوق الجسر وهو يتذكر على صوت المطر الوحشي فوق النافذة ذلك اليوم البعيد الذي علت فيه ضجة بحث في الفجر

مع عواء كلاب وطيران مذعور لعصافير ودجاج وبط الحظيرة التي كان الضوء يكسوها بغلاف شفاف فجري وردي حالم .

في مثل ذاك اليوم من النهار يكون الاستيقاظ هادئاً حتى ان كل مخلوقات الحقول تنتظر هذا الوقت لكن هذه الساعة غيرت كل شيء بما في ذلك الندى الذي ظهر مهتزاً على ضوء فجر مختلف تحت سماء رمادية موعودة بأمطار وغيوم وعواصف وحكايات ومواقد جمر.

كان البحث يجري في كل الأمكنة التي يمكن تخيل ان صفَيَّة قد تكون موجودة فيها وهي عدة أمكنة ويمكن حصرها في خطوات: الحظيرة، وكدس التبن، وقن الدجاج، وكوخ العجول الصغيرة الذي تعيش فيه منذ ان ظهرت أول مرة إلى الحياة. ليس هناك أي مكان آخر متخيل يمكن أن تكون قد ذهبت إليه بما في ذلك النهر أو

الـبراري لأن أوانـه لم يحـن بعـد وهـو يكـون عـادة بعـد وقـت العلف والحلب، أي بعد الضحى.

اختفـت تمامـا مـن الوجـود علـى نحـو مباغـت كمـا ظهـرت قبـل سنوات بشكل مباغت. ليس هناك أحد وضع احتمالاً حول هذا الاختفاء الغريب ولا أي مكان مفترض للهروب ولا أي سبب.

ان صُفَيَّة لا تعرف شخصاً في هـذا العـالم عـدا هـذه العائلـة ولا تعرف مكانا يمكن ان تذهب إليه بمفردها، بل هي لم تركب واسطة نقـل في حياتهـا مـرة واحـدة، ولا رأت قطـاراً أو طـائرة علـى الأرض، ولا دفعت يوما أجرة طريق، بل لا تعرف، خارج الحظيرة، أي عـالم قريب أو بعيد، ولم تنم مرة واحدة في غرفة أخرى عدا كوخ العجول الـذي خرجـت منـه سـلالات كثـيرة تعرفهـا بالأسمـاء والأشـكال والروائح والطباع والنهايات.

كان يوسف قد انتهى من صلاة الفجر ودعا الله أن تمر عاصفة صفية على خير وأقبل على حلب الجواميس حتى انه نسي أن ينهض أكثر من مرة وهو يواصل الحلب الأمر الذي وخز ضروع الحيوانات فشرعت ترفس. المكان الوحيد الذي لم يفتش بصورة دقيقة هو كدس التبن . فكر وهو يفرغ سطل الحليب في الدنان.

نظر إلى كدس التبن فكان سطحه ساكنا نديا. صاح:" صفية، يا صفية". تحرك السطح القمحي المندى فخرج من قلبه مخلوق بلا ملامح، ومع الوقت ظهرت قامة بشرية مغطاة بالتبن واللون الأسود الفاحم، لون ليلي حالك السواد، ثم انشقت فتحة كشفت عن فم آدمي، وخرج صوت ضعيف متهالك لكنه غير مفهوم. كانت صفية تنهض من التبن كما قدمت يوما من أطراف البرية في غسق صيفي قديم وهي تلف راية خضراء على حزامها هي كل ما تحمله معها من هوية.

رأى يوسف كما يرى النائم ان قامتها صارت أكثر طولا، وان صوتها تبدل، بل خيل إليه انه يرى نجمة مضيئة على جبينها، لكن أكثر ما حيره حين تكلمت انه لم يفهم عدا كلمة واحدة: "كنتُ مسافرة". سألها في أشد حالات الجزع والريبة:" في التبن؟" هزت رأسها.

ذلك النهار سادت سكينة غريبة في المنزل ولم يفهم احد حقيقة ما جرى ، حتى ان السيد الصيراوي أكبر معمر في البلدة وصاحب الخان فسر الأمر في جلسة صامتة وكئيبة ذلك المساء على نيران موقد الجمر، وأمام حشد مرتاب، بأن صفية ولدت من جديد من كدس التبن واقترح عليهم تسجيل هذا اليوم كتاريخ ولادة حقيقي، وطلب حضورها من غرفة العجول. حضرت وطبقة سميكة من السواد تكسو الوجه والجلد فلا أحد يتذكر أنها استحمت يوما أو استبدلت ثيابها منذ ظهورها قبل سنوات.

ظهور صفية الأول صار دليلا على حالات موت وولادة وأعراس وقتل ومواسم صيف خصيبة ، لكنها ظلت بلا تاريخ، ما عدا هوية جنسية انثوية لم تشغل بال أحد. باستثناء عدة بيوت متنافرة مجاورة للمنزل، لا تعرف صفية أي مكان في العالم، ولا تعرف أي حدث عام غير مقتل الملك الذي سمعته مصادفة ذلك اليوم البعيد ثم عاد عالمها كي ينغلق بتلك الطبقة السميكة التي صارت عازلا بينها وبين الكون، ولتقيم بصورة أبدية في كوخ العجول، ولطول إقامتها في هذا المكان الفت لغة العجول تماما، ونسيت لغة البشر، بل لم يعد أحد يهتم بهذا الأمر الذي يعد ترفا لا معنى له في عالم صفية البعيد.

إن أهم شيء هو ان تقوم بعملها على أحسن ما يرام والباقي ترف. لا هي تحتاج أن تتكلم مع أحد، ولا غيرها يحتاج أيضا، فهي منذ خرجت من أعماق البرية ذلك المساء الصيفي الغسقي المحمر المتوج بهالة مشعة في الأفق، وهي تعيش وتأكل وتحلم وتنام

في كدس تبن، لذلك لا غرابة أن تقول أنها كانت مسافرة في كدس تبن.

تكلمت صُفيّة مع الصيراوي الذي جحظت عيناه كما لو انه مات تلك اللحظة وبدا تالفاً ومتوارياً ومندهشاً. لكن الطيور الداجنة في الحظيرة المجاورة فرجت له بعض كربه ونفخ طويلا في موقد النار كما لو انه يحاول أن يفهم لكن بلا جدوى. كلاهما كان خائفا من الآخر. في لحظة الهام لا تنقصه في مثل هذه اللحظات فهم الصيراوي ان صفية مصممة هذه المرة تصميما شيطانيا على قول أشياء كثيرة كانت مطمورة تحت طبقات وعيها الغائب وان ذاكرتها عادت إليها من هذا السفر الطويل في كدس التبن.

سألها إذا كانت قد غابت عن الوعي أم ان شيئا قد وقع؟ فتح في الوجه الأسود شق صغير وخرج صوت عميق هادئ لكنه حاد كما لو أنها تنادي في البرية:

ـ "فقدت الوعي لكني لا أدري كيف وصلت كدس التبن. كنت مسافرة".

رد الصيراوي بصوت مهزوز وهو يتوقع سماع أنباء مثيرة: "سلامتك صفية".

تأمل الوجوه القلقة حوله وطلب الصيراوي أن تقام يوماً حفلة بحضور قارئ كتاب وضاربي دفوف وجوقة من مرتلي الآيات وفي النهاية تختن صفيّة كي لا تحل الغواية ويعم الخراب. ترك الصيراوي يوم الختان مفتوحاً كجرح نازف في جسدها.

."ملعون هذا السفر".

قال ذلك وهو يغادر تتبعه كلاب منتصف الليل بالنباح وحميد سائس الخيل، في حين كان القمر يبزغ ويختفي من غيوم رمادية تنذر بأمطار رعدية. تسللت صفية، كأي يوم آخر إلى كوخ

العجول مثل سحلية وحيدة وهي تشم رائحة هذه المخلوقات الطرية وهي تجتر الحليب.

سحبت حصيرة القش كالعادة وحاولت النوم لكنها وللمرة الأولى أجهشت في بكاء متشنج. حين نظرت عبر الكوة، كان القمر قد تلاشى، وسمعت كما لو أن ذلك يحدث أول مرة في حياتها صوت المطر ينشال فوق كدس التبن فشمت العبير الندي، سمعت سقوط أوراق شجرة قريبة، أحست بدمها ساخنا سخونة غريبة مثيرة ومبهجة وان هذا المطر يهطل من أجلها، وتمنت لو أنها كحيوان صغير يلتف حول جسده وينام في جحر على صوت المطر وسقوط الأوراق وعبير التبن ورائحة الحليب وعرق العجول.

لم ينم يوسف تلك الليلة، ولا الصيراوي، ولا الكلاب التي ظلت تنبح طوال تلك الليالي على قمر يظهر ويختفي، وعلى مطر لم يكف عن الهطول. أخرج بندقيته البرنو ونظفها على ضوء الفانوس

قبل أن ينزلق في العتمة الداكنة إلى المخبأ الخاص الذي خصصه مكانا للحراسة من اللصوص ومن غيرهم لأن دماً قديماً في رقبته.

تذكر يوسف تلك الليلة أفضل من غيرها ذلك الصباح المشؤوم الذي سيطبع الباقي من حياته بوجع داخلي مقيم كجرح سري لا يندمل ولا ينفتح وينقذه من هذا الوخز الموجع.

ذلك الصباح كان يوسف قد قرر بينه وبين نفسه ان تلك هي الفرصة الأخيرة لعدوه الذي صار يتسلى باحتقاره له كلما التقى به في برية أو ضفة نهر أو حصاد أو دغل.

كان يوسف شابا ترقص على أكتافه النجوم، وتخافه وحوش البرية ومخلوقاتها الضارية وكان يؤدي الصلاة في أوقاتها، وسيماً، حياً، لطيفاً، لكنه كان حاداً كرمح بابلي عتيق. ذلك الصباح صلى خاشعا وتمنى من السماء أن ترحمه من هذا العدو السفيه، وكان

يردد دائما قبل ذلك الصباح وبعده كلاما شائعا: الذنب من المقتول لا من القاتل.

لم تشفع له صلاته ولا توسلاته. ظهر له عدوه من بين الدغل كضبع هائج أو قدر مرسوم أو لعنة ستوسم الباقي من حياته. رجاه أن يتعوذ الشيطان. قال له انك في منزلة عمي وأنا كابنك. أرجوك ابعد عني. الريح كنست كل توسلاته. قال له يوسف: - "إذن، موعدنا الظهيرة في المضيف".

عاد منهكاً قبل الظهيرة وهو يسوق قطيعه وحزنه وذهوله على غير عادته. قال لأمه في شروده:" أعطني البندقية". لم تسأله أمه أبدا عن السبب فقد عرفت بحدس الأم. قالت وهو تتأمله ملياً بصبر وحكمة وأناة: "خذها. هذا قدره".

كانت بوابة المضيف مفتوحة وعدوه جالساً ينتظر مصيره. ركع يوسف على الأرض وهو يرفع بندقيته من كتفه ويصوبها إلى صدر الآخر. قبل أن يطلق النار قال له آخر الكلمات: "خذها يا كلب".

ذُهل الرجل وبدا عليه الهلع. وضع ركبتيه حول صدره في وضع حماية لكن الأوان قد فات حين دوت الرصاصات القاتلة لينهار على الأرض والدم ينز من عدة ثقوب في صدره. حاول أن ينهض ويمشي نحو يوسف لكن الوقت متأخر.

حين عاد يوسف، لم تقل له أمه كلمة واحدة، وقد سمعت رصاصاته قبل لحظات. أخذت منه البندقية ونظفتها وحشتها مرة أخرى ووضعتها جواره في حين كان يوسف راكعا يصلي وهو يجهش في بكاء مرير مخاطباً سماء رمادية موحشة.

لم يقدم أحد شكوى عن الحادثة ولا ببلاغ ذلك اليوم ولا في أي يوم آخر في ذلك الزمان، عشرينات القرن الماضي، ولم يكن السراي الوليد تواً يمتلك القوة الكافية، ولم تكن هناك سلطة حقيقية بالمعنى المعروف غير سلطة الشيوخ وتُرك الدم للدم.

لم يكن هذا يغيظ يوسف أبداً فهو منذ ذلك اليوم لم يقترب منه أحد حول الأمر، لكن أكثر الأشياء تنغيصا هي ذكرى تلك الظهيرة المحزنة. منذ ذلك اليوم وهو يصلي لعدوه القتيل عند نهاية كل صلاة ويقيم له كل جمعة عشاء الموتى مخاطبا إياه في لوعة: "أجبرتني على ذلك".

كل مساء جمعة يكون يوسف على موعد في المساء مع القتيل في صلاته وفي عشاء الموتى وهي عادة درج عليها بلا سهو أو ملل أو عجز أو يأس. كان القتيل يزوره أحياناً في المنام، ويتسامران، وكان يوسف لا يكل من جملته المعهودة: "أنت أجبرتني".

كان يوسف يقول بلهجة لا تخلو من محبة إن عدوه أخبره أمس بموسم رعي طيب وأمطار غزيرة وبرية مباركة، بل كان يقدم له بعض النصائح فيما يخص القطيع واللصوص والحراسة حتى انه أخبره مرة بذئاب شرسة ستهجم عليه في الليل وقد وقع ذلك.

في مساء صيفي عذب والنسيم يمرق بين السنابل بهدوء كالزمن، ويوسف يروي قطيعه من النهر، ظهر شبح من البرية يقترب، والأفق محمر بلون محترق. كانت صبية تشد حزاما أخضر على خصرها وتبدو منهكة، شاحبة، خائفة. سألته وجلة عن اسم البلدة فأجاب. سألها عن اسمها فردت بحياء:
." صُفَيَّة".

كان يبدو عليها أنها قادمة من سفر طويل وعلى وجهها علامات إنهاك وجوع وحزن طفولي موجع. سألها ان كانت تعرف

أحداً؟ ردت بأنها لا تعرف أحدا ولا أحد يعرفها هنا. سألها من أين جاءت؟ قالت: من البرية. سألها: أين ستذهبين؟ ردت وهي تلوي عنقها بسذاجة تثير الشفقة : لا أدري.

ذلك المساء عاد بها إلى المنزل واحتضنتها أمه وهي تشمها كبنت غائبة عادت من جديد. تلك الليلة قالت له أمه:

. "يا يوسف، هذه صفية أختك أو ابنتك. عسى ان يغفر لك الله ما علق في رقبتك من دم".تلك الليلة جاء القتيل في المنام بوجه مضيء وهو يقول مبتهجا:

. "غفرت لك دمي يا يوسف، اذهب فأنت حر".

***

سمع من مكان حراسته صوت قادم من كوخ العجول الصغيرة. صوت بكاء بعد منتصف الليل. كانت صفية. كان صوتها يختلط بالمطر وصوت الأوراق المتساقطة ونباح الكلاب ورائحة الحليب والتراب والتبن الندي. لم يسمعها تبكي إلا تلك الليلة في انتظار وليمة الختان والطبل ويوم الولادة المأمول.

بدا له ان هذا الصوت الباكي ليس صوت صفية بل صوت المطر، الأشجار، الأرض. في الصباح كانت تسقي العجول وتوقد النار وتغلي الحليب وترش البذور للدجاج والبط ثم تجلس كما في كل يوم في ركنها البعيد في الحظيرة بقعة سوداء كطائر نافر، مخلوق ضائع، كفراشة حائرة في بركة ماء.

***

لم ينم الصيراوي تلك الليلة لأن الوقائع الغريبة التي حدثت ذلك الصباح أصابته بقلق غريب. عاد إلى خانه في المكان الذي صار يعرف بمحلة الصيراوي وظل جالسا تارة وتارة اخرى يتمشى بين الخيول وغرف النزلاء مفكرا مشوش البال حتى أدركه الصباح على هذه الحال حين فز على صوت سائس الخيل حميد وهو يلقي عليه تحية الصباح قائلا:" خير سيدنا؟"
رد عليه:" أين الخير في وجهك؟".

لا يتخيل الصيراوي الخان دون ذكر سائس الخيل حميد الذي ظهر فجأة عند باب الخان قبل سنوات ضائعة. كان جالساً في مساء قديم عند عتبة الخان، في صباح ماطر، حين لمح شخصاً غريب الأطوار، يرتدي جلباباً ممزقاً، شاحب الوجه بنظرات زائغة وهو يقلب النظر في الشارع الخاوي إلا من المطر وفوانيس معلقة على الأبواب تضاء في الليل وتطفأ في الصباح. طلب منه الدخول ومنذ ذلك اليوم صار سائس الخيل جزءاً من تاريخ الخان.

بعد ذلك بسنوات جاء مصطفى الترك الجندي العثماني الذي تخلف عن الانسحاب من الجيش التركي في الحرب العالمية الأولى وعاش في البلدة، ثم ظهر في نهار ربيعي مشرق عزيز صباغ الأحذية، وفي منتصف ليلة بلا قمر عدا الريح تصر في الأبواب ظهر منشي شالوم أشهر نزّاح في البلدة، واكتملت السبحة بخاتمة الضيوف المزمنين، كما يحلو للصيراوي ان يقول حين يرق المزاج، بقدوم كورجيّة، في ليلة صيف مقمرة، لتضيف نكهة الإغواء والحيوية في خان الصيراوي.

بوغت الصيراوي وهو يرى قمراً يمشي على قدمين يدخل الخان ويجلس أمامه كما يجلس قمر مكتمل على حصير. قالت له بحياء يلهب القلب الذاوي ويحرك الأمل في الأطراف المرتعشة من عمر منهك ضاع فيه يوم الولادة بعد أن انقرض كل الذين شهدوا ولادته من الأهل والأصدقاء والمعارف والأقارب، وتناسل فيه الأحفاد حتى

تاهت عليه الوجوه والأسماء والولادات والجنازات: . " أنا مقطوعة من شجرة".

لو ان كل الأشجار تقطع بهذه الطريقة الفاتنة، فكر الصيراوي، فسيجعل خانه غابة تغرد عليها هذه البلابل الضائعة، ولطرد كل هذه البهائم التي يقذف له بها الطريق من سائس الخيل وحتى شالوم وهذا الجندي العثماني الهارب من الحرب، لكن وقار العمر وخور المفاصل والسمعة واللحية البيضاء المسترسلة جعلته يتريث في سكب مشاعره تحت أقدام هذه الحورية المشعة أمامه حتى يكاد نورها يعشي البصر والبصيرة. كان قد سمع عدة مرات اغنية شعبية تتحدث عن راهب الدير الذي خرج من صومعته بسبب ملهمة من هذا النوع. هو الآن يمكنه تصور هذا المروق الصاعق. قال لها وهو يغض الطرف خوفاً من افتضاح المشاعر المضطرمة:
. "الخان ملكك وأنت في أمان".

سكنت كورجية في أقصى الخان في غرفة منعزلة بعيداً عن غرف النزلاء المقيمين والعابرين ولم تكن تظهر إلا في أوقات نادرة وهي تضع نقابا على الوجه زادها بهاءً وغموضاً وفتنةً حتى ان سائس الخيل حميد قد أصيب بلوثة عقلية طارئة دون أن يفصح عن السبب لكن ذلك لم يغب عن نظر الصيراوي الذي قال عدة مرات له إنه ولد في وعاء لبن وإنه يرى في الديجور وفي الوحل حتى لو أصيب بالعمى. لكن سائس الخيل لم يكن يسمع أو يرى لأنه هو الآخر غارق في عماه البهي حتى انه عرض على الصيراوي طردها من الخان بعد ان هزت سكينة المكان ودخلته كدخول ثعلب في قن للدجاج.

في منتصف ليلة صيف شم الصيراوي روائح مختلطة من مسك وزعفران وعنبر وعطور ورازقي قادمة من أقصى العالم. يستطيع ان يحدد مصدر الرائحة ولو كان في غياهب جب صحراوي. خيل اليه، في النشوة والانخطاف والتوهج، انه يشم رائحة الجنة، لأن

هذه الرائحة ليست أرضية ولا بشرية لأن الخان يعبق برائحة الخيل والبهائم وعرق السائس والروث، بل هي تنتمي الى عالم المتع الاخروي المقدس.

فكر على نحو خاطف بعرض السائس المجنون ووجد فيه رغم الحماقة بعض الحكمة، لكنه، ودون وعي منه، توكأ على عصاه ونهض متثاقلا منجذبا كالمجذوب الى تلك الرائحة التي تتغلغل في خلاياه وتنبت له أجنحة فوق ركام الهرم والسنوات وتيبس الأطراف.

كانت كورجية تجلس امام مرآة صغيرة وضعتها على وسادتها تمشط شعرها الحريري الذي ينسدل على الوسادة كشلال ضوء أو ماء أو ذهب حين تناهى الى سمعها صوت عكاز يدق الأرض بقوة. تستطيع، من بين كل الأصوات، أن تميز عكاز الصيراوي، فهو العكاز الوحيد في العالم الذي تتعكز عليه دون غيره.

منذ اللحظة الأولى التي رأت فيها الصيراوي شمت في جسده الذاوي، وفي نظراته المطفأة، وفي خفره الشائخ، رائحة الذكر وعطره الغابي الدفين رغم الهرم الظاهري. هذه الرائحة تشمها الأنثى من خلف أستار الحديد وهي انذارها المبكر للهرب أو الاستسلام.استعدت للزيارة حين سمعت ارتطامه بالارض وتوقف صوت العكاز.

كان الصيراوي قد تداعى من صدمة العطر الذي باغته عند الباب كحيوان شرس. سحبته بهدوء واجلسته على فراشها. حاول ان يقول شيئا لكنه لم يستطع. حاول أن ينظر اليها لكنه لم يستطع. حاول أن يهرب، أن يموت، يبكي، يعتذر، أن يطلب ماءً، أن يطردها، أن ينام، أن يمسح شعرها، أصابعها، نقابها، لكنه قال في النهاية في نوبة قوة مباغتة:

. "خفت عليك من سائس الخيل فقلت أطمئن".

سائس الخيل العريق في الطرق والأدغال وشؤون القلب والنساء والخبير بعوالم الصيراوي وخانه، سمع الجملة الأخيرة كرفسة طارئة من فرس حرون. كانت اذنه تلتصق على الباب كمسمار ساخن في شهر آب المحرق حتى انه كان يشم عطر الموت ولهاث الصيراوي ورائحة الأنثى التي باغتها الهرم والمطر وضوء النجوم وطراوة ليالي الصيف والخطيئة. سمعها تقول برنة مرحة:

." شرفتنا زيارتكم".

رد عليها بصوت مخنوق:" أنت الشرف".

حاول أن ينهض مغادرا لكن دويا هائلا قد وقع وساد صمت طويل أطول كثيرا من العطر المثير الذي يعصف بالكون ورأس سائس الخيل والابدية. بدا كما لو أن الصيراوي قد نام أو مات أو تلاشى في السكون الضاج. كما لو ان سائس الخيل في حلم مريب أو في وهم أو كابوس.

من ثقب لا يكاد يرى عثر عليه في لحظة ظفر رأى سائس الخيل الصيراوي ممددا على الفراش وهي تدلك له جسده الممتد على طول الغرفة، أطول جسد رآه في حياته التالفة. كان الجسد يصدر صوتا يشبه شخير ثور يذبح على مراحل وهو يتلذذ بسكين الجزار.

خيل لسائس الخيل المشرد ان الصيراوي لم يعد بحاجة بعد اليوم لذلك العكاز كي يتوكأ عليه. ان هذا العطر المارق يكفي كي يمشي عليه كل الباقي من حياته ولو ولد بلا ساقين، حتى لو نسي المشي.

لم ينم حميد السائس تلك الليلة ابدا رغم انه عرف الكثير من الليالي الطوال في حياته لكن تلك الليلة بدت له بلا نهاية. ثعبان صحراوي لم يشرب ماءً منذ عصور سحيقة يرقد عند حافة جدول ماء عذب وزلال دون أن يقوى على الشراب.

هذا هو الموت يا صاحب الخيول وربيب الطرق والحرمان والعطش والجسد المنذور لزاوج الحمير والخيل، يا منتج البغال والأرق. من مسافدة حمار الخان مع الفرس يولد البغل. أصل البغل حمار يا حميد السائس وانت أدنى منزلة منه. كومة العظام المنخورة أشجع منك الليلة. هو يرقد الان بسلام تحت الأصابع الرقيقة وانت في مواجهة حائط ينهال عليك بالتراب والهوام والعقارب والكبت والأرق.

كان يغلي في مواجهة حائط، حين سمع صهيل جواد يرج المكان. لم يكن أي جواد في العالم يصهل تلك الليلة. كان قلبه يصهل مثل جواد سقط في حفرة نار. كان السكون يعم الخان كما لو ان كل الأصوات قد غادرت العالم حتى الغبش حين سمع عكازا يدق الأرض بقوة على صوت اذان الفجر وصياح الديوك وجسده المرتعش وهو ينفصل عنه كثوب الأفعى.

طوال الليل كان منشي شالوم يحاول أن يحبس أنفاسه حين سمع الارتطام الأول قرب باب كورجية وانقطاع دوي العكاز على الأرض. لكنه لم يغادر غرفته الكئيبة والعارية إلا من فراش بال وعدة صحون وخرج وثياب تفوح منها رائحة نتنة أدمن عليها من طول المعاشرة.

شالوم يعرف من خبرة القلب والجسد ان الصيراوي انسان طيب ولطيف المعشر وهذا لا يقلل من شأنه على اية حال. الصيراوي آواهم جميعا بلا شروط وهذا خانه رغم كل شيء وبيته وهو حر ولم يفعل شيئا يستحق عليه اللعنة. قبل الفجر نام شالوم على حلم جديد في ان يعثر على عمل في الصباح ويغوص في حفرة قذرة آخر مساحة للأحلام الممكنة.

انقطع قتيل يوسف عن زيارة الأحلام فترة من الوقت بعد قدوم صفية لكنه في اغفاءة قصيرة ليوسف في حراسته الليلية ظهر من خلف كدس التبن وفي ضوء القمر بثياب بيض براقة ووجه ضاحك. اقبل كما يقبل فارس وضاء الوجه، بهية الطلعة، يكاد أن يطير في الشعاع القمري الشفاف.

قال يوسف مستقبلا فرحا:

. " تأخرت عني؟".

رد عليه وهو يعانقه:"قلت لك آخر مرة انك حر الان. كنت اريدك ان تنسى حكايتي معك. صارت ذكراي عقابا لك".

سأله يوسف:

. " ما الذي جاء بك اليوم اذن؟".

أجاب:

. "قلق على صفية".

رد يوسف حالا:

. "صفية أختي".

قال معتذراً:

ـ " اعرف ذلك أكثر منك.أنا مت مرة واحدة لكن صفية تموت كل يوم. مع السلامة".

جلس الصيراوي في الصباح على عتبة مخصصة في باب الخان وهو يتأمل المارة حين مر موكب عاصف وشاهد كما بين النوم واليقظة سيارة شرطة، بعد تأسيس مركز الشرطة الجديد، ربط عليها رجل يرجم بالحجارة والشتائم من جموع غاضبة مزمجرة. نهض على عكازه مستفسرا فجاء الجواب:

. " هذا الزاني عمل عملاً مشيناً مع ابنة اخته".

ضحك الصيراوي حتى دوت ضحكته عاليا لكنها ضاعت في صخب الجموع الغاضبة. لا أحد عرف سر ضحكة الصيراوي لكن سائس الخيل حميد أقترب منه قائلا:

. "سافل ويستحق الرجم".

رمقه الصيراوي بنظرة خارقة فشعر حميد ببرودة تعريه. قال الصيراوي:

. "مغتصب؟"، قال سائس الخيل بريق جاف:

." اعترفت هي قبل الذبح".

جلجلت مرة أخرى ضحكة الصيراوي حتى فرت عصافير شجرة النبق القريبة وتلاشت في الضوء النهاري المغبر من أثر الموكب العاصف.

في المساء همس عزيز الاسكافي القادم من السوق وفي مشيته عرج مزمن في اذن الصيراوي قائلا إن الرجل بريء وان الفتاة قالت ذلك

كي تنجو من الموت وهو اعترف تحت التعذيب ايضا وان هذه الجموع غوغاء وانه هو شخصيا مريض اليوم.

لم يكن عزيز يعرف وقائع تلك الليلة وهي لن تهمه على أية حال وهو يشعر نحو الصيراوي بامتنان كبير وان الخان بيته هو ايضا، كما أن نظرته الى كورجية ليست طيبة. ماذا تفعل امرأة حسناء في خان للمشردين وعابري السبيل العزاب والغرباء في وطنهم؟

أما مصطفى الترك فلم يعلق بشيء هو العارف ببواطن الامور والتزم بحكمة تتحدث عن فوائد الصمت للغريب، خاصة وانه أقدم سائق أجرة في البلدة منذ عشرينات القرن الماضي وظل يعمل بالسيارة القديمة نفسها حتى أقعده الكبر. ظل صمته يتراكم على وقائع كثيرة ومثيرة وحين دخل في الثمانين من العمر صار يهذي بوقائع غريبة وقعت في البلدة مسببا حرجا كبيرا لعلية القوم والأسر

المحافظة حتى ان المارة صاروا يتجنبون أن يقع نظره عليهم تلافيا للفضائح.

صارت حياة مصطفى الترك مثل موته مشكلة حقيقية. صار صمته مثل كلامه مريبا. الوحيد الذي يخشاه هو الصيراوي. نظرة واحدة من هذا الأخير تكفي لاعادة الذاكرة لهذا الجندي العثماني الذي تذكر في سنواته الأخيرة وطنه فصار يرفع في غرفته علم تركيا وصورة كمال أتاتورك ويجاهر بوطنيته كما لو ان ذاكرة المنفى تلاشت، في نهاية المطاف، كي تظهر ذاكرة الأرض الأولى. علق مرة على ذلك شالوم قائلا:

. " مصطفى ترك ولد من جديد".

تساءل مرة حميد السائس وهو يتسامر ذات ليلة مع شالوم:

ـ " ماذا سيحصل لو ان ذاكرة كورجية عادت اليها في نهاية المطاف؟".

اما يوسف فهو الوحيد من بين أصحاب الصيراوي وزوار خانه الذي ظلت ذاكرته مقيمة في أحداث تلك الظهيرة الملعونة كأن الرصاصات التي اطلقها على عدوه انما أطلقها على الأيام القادمة وصار شبح الميت يطارده حتى في الحلم رغم الصلاة وطقوس العشاء والدعاء والوعد بزيارة بيت الله الحرام.

كان الصيراوي يجلس على عتبة الخان في مكانه المعهود وقد بلغ من العمر عتيا، في صباح ربيعي عذب، حين مر موكب صاخب من أمام الخان يختلف عن موكب السنوات الماضية، بضجته وجنده وشرطته وسياراته وهتافاته. سأل عن الأمر، فقيل له:
." موكب الرئيس ".

جلجلت ضحكته عاليا وضاعت كما في المرة الأولى في الضوء النهاري المغبر. قال له شالوم: تبدو فرحا بالموكب؟رد الصيراوي ضاحكا بقوة هذه المرة قائلا بلهجة ملغزة:

. "مغتصب؟".

لم يفهم شالوم لكن سائس الخيل حميد تذكر سؤال الصيراوي عند مرور موكب الرجل المرجوم وضحك هو الاخر حتى فرت العصافير وحطت فوق حيطان الخان الذي بدا ضاجا بالصهيل والخيل والأفراس والليالي الدافئة والمخلوقات البشرية التي يطردها النهار الى الخان، فتلوذ بالليل والجدران والأحلام المسروقة والحكايات الليلية التي لا تنقطع عن جسد أو عن وطن أو مكان نظيف آمن للنوم والحلم والأمل.

حميد السائس قال لكورجية وهو يندس في فراشها، تلك الليلة، إن الصيراوي شتم الرئيس خلال مرور الموكب الرئاسي من أمام

الخان، فسألته وهي تغطي شعر عانتها التي كانت تلمع تحت ضوء الفانوس مثل راية حرب مذهبة على سارية:

. "كيف عرفتِ؟".

سألها وهو يعجبن نهدها بيده التي ملت من فروج الخيل :

ـ" سمعته يقول اليوم لدى مرور الموكب: مغتصب؟ سمعت هذا السؤال منه عند مرور موكب الرجل المرجوم".

لم ترد عليه كورجية لكنها شعرت وهو يخور فوقها كثور هائج ان الصيراوي على حق وتمنت لو عاد الآن شابا بدل هذا السائس الراكض فوق جسدها كجواد محترق في سهل مفتوح.

عاد نزلاء خان الصيراوي جميعا في مساء شتائي عاصف وبارد وكئيب إلا شالوم. لم يعد شالوم ذلك المساء ولا في أي مساء اخر. سقط في حفرة خراء ومات. نهاية محتومة كقدر محارب في أن يموت في ساحة حرب. ودعته البلدة وفق تقاليد حرصت عليها مع

الغريب والفقير والمشرد حتى حدود البلدة لكن احدا، عدا كورجية لم يبك عليه. حلت الكآبة على الخان ومعها ذكرى الموت.

أكثر الذين ذعروا من هذا الموت الطارئ هو مصطفى الترك. شعر ان الموت أقرب اليه من حبل الوريد. فكر في أن يحمل حقيبته ويرحل لكنه عدل عن ذلك معللا الامر بصحة طيبة وميتة بعيدة. في أسوأ الأحوال لن يموت بطريقة شالوم المهينة. لكن من يعرف والايام كما تقول الأغنية التي طالما سمعها من الراديو مثل السحاب؟

كلما حل مساء بارد أدار وجهه نحو الشمال، نحو الوطن البعيد، نحو تركيا التي رفض العودة اليها يوم كان محاربا والتي يحن اليها اليوم كطائر مهاجر يلتفت نحو أرض الهجرات عند مقدم الربيع.

مصطفى الترك يرفض أن يموت وحيدا حتى لو كانت أرض الله واحدة وواسعة لكنها تضيق حين يفيض القلب بالحنين عن مساحة الصحراء. انه منذ ترك العمل لا يعيش في الخان، بل في الأماكن القديمة، ولا تبهجه سوى الأمطار الأولى، كما لو ان الأمطار كل تلك السنوات كانت تمطر حجرا عليه.

في هذا يشبه راوي هذه الحكاية الجالس قرب نافذة مطلة على خليج بعيد على مقربة من جبال مكسوة بثلوج العام الماضي، يشاهد عبر التلفاز الجيش الأمريكي مخترقا جسده.

فكر تلك الليلة مليأً كما لو انه لم يفكر من قبل: يوم ترك جيشه، كانت بلاده تتفسخ، واليوم ها هو يفكر بترك هذه البلاد الجديدة وهي على أعتاب تفسخ. لم يعد يرى في هذه البلاد عدا الموت في الشوارع. ظل صامتا صمت القبور كل تلك السنوات

لكن ذاكرته تخونه اليوم وصار يهذي بما سكت عنه وهو مما لا يقال.

سمع كما في منام صوت تأوهات من غرفة سائس الخيل ولم يكن يعرف حقيقة ما يجري لأن حميد المشرد غالبا ما يتأوه في أعماق الليل حتى حين تكون كورجية خارج الخان . سمع من بين طبقات العتمة صوت شالوم يقول:

."عد، يا مصطفى من حيث جئت قبل فوات الأوان".

حاول أن يشعل الفانوس لكن النهار فاجأه فنام على صوت مطر بعيد.

***

لا تتذكر صفية من حياتها السابقة إلا ذلك المساء المتوهج المحمر الذي التقت فيه بيوسف على حافة النهر قادمة من أعماق البرية

كأنها ولدت من تلك العتمة المسائية الدافئة. اليوم وهي تصغي لصوت سقوط المطر، تساقط الأوراق، الريح، تشعر بما يشعر به حيوان صغير برهبة خفية من عالم موحش لكنها تشعر كذلك بحرارة غير معهودة تدب في أوصالها.

تبكي لأول مرة في هذا الكوخ، تحس بشيء ما في أعماقها يتفتح. قررت أن تغسل جسدها وشعرها في الصباح بعد ان صارت مثل أرض الموقد سوداء حتى ان الصبية يخافون منها ومنهم الرجل الجالس خلف نافذة المطر والثلج والخليج والجبال البعيدة الجالس لمشاهدة غزو مصوّر علناً.

بعد منتصف الليل سمعت كالعادة خطوات يوسف وهو ينحدر بهدوء نحو مكان الحراسة. لا تتخيل صفية حياة بدون هذا الرجل الغريب والحنون والطيب. لا تتخيل ايضا انه هو الذي اطلق النار على الرجل . لكنها من حزن يوسف الطويل، ومرارته، واسفه،

وصلاته وقرابينه للقتيل تتفهم روحه ولوعته. تسمع كثيرا عن احلامه الليلية وهو يرويها لأمه على موقد النار لكنها لم تحلم أبدا. تمنت لو تحلم مرة واحدة كي ترى هذا العالم المدهش الذي يثير خيالها أكثر من غيره، أكثر من هذه الحظيرة.

في الأيام الأخيرة سمعت عن حرب وقعت على الحدود. حدود عالم صفية هي الحظيرة. ما من حدود خارجها. قتلى. جنازات. مواكب عزاء هنا وهناك. يوسف يروي حكايات عجيبة عن الحرب يسمعها من الراديو. لا أحد يروي لصفية كما لو انها خارج المكان وخارج الحياة لكنها تسمعه يروي لأمه وزواره. مرة سألها أحد زوار المنزل عن الحرب فقلبت يديها.

فكرت أن تسأل يوسف عن سر الحراسة المستمرة لأن الميت شبع موتا وأهله نسوا الواقعة وقد مرت سنوات طويلة على ذلك

لكنها صمتت في اخر لحظة حين سمعته يقول يوما لضيوفه ان الحراسة بالنسبة اليه صارت انتظارا لزيارته في الحلم. قال:
- " لم يزرني في منام آخر عدا مكان الحراسة. هناك أعرف أخباره ويطمئن قلبي".

ولد أمس عجل صغير تكاد تشم رائحته الندية. لا يزال مبقعا بدم الرحم وماء الولادة. لحسته أمه طوال الوقت ومع ذلك فان رائحته تملأ الروح. تشعر بلسانه على وجهها حارا طريا وسيكون صديقا لفترة طويلة في هذا الكوخ الذي تنهمر فوقه الليلة أمطار غزيرة وتصفر في زواياه الريح والعتمة.

لا تدري كيف وجدت نفسها تحت أكداس التبن ذلك الفجر. كل ما تتذكره انها شعرت بأنها على وشك نوم ثقيل داهمها ولا شيء غير ذلك. كيف انسلت في التبن؟ ماذا تفعل؟ ماذا حصل

بعد ذلك؟ والأهم من كل ذلك ماذا يريد الصيراوي من حكاية الختان؟ وأي جزء من جسدها سيقتطع؟

مدت يدها الى مكان ما أسفل البطن، فشعرت بهوة تنفتح على ليل مجهول. خافت. ليل حار ولزج. ليل مخيف ومقدس وسري. لو مدت يدها أكثر فإلى أين يقود هذا الليل؟ لو مدت يدها الى هذا المطر الى اين يقودها هذا المطر؟ لو مدت يدها في الظلام فإلى اين ستصل؟ كان العجل الصغير يرنو اليها فعانقته ونامت بلا جسد ولا حلم ولا ذكرى إلا على صوت المطر.

هي لا تعرف غير هذا المطر. هذا المطر، هذا الليل، هذه الحظيرة، هذه العجول، هذا الرجل، وذلك المساء القديم يوم خرجت من عتمة البرية الى عتمة الذاكرة. سفر بين عتمتين وسفر واحد في كدس تبن. لم تعانق احدا، ولم يعانقها احد عدا العجول

الصغيرة. لا تنتظر من هذا الليل غير نهار يشبهه ولا فرق بينهما الا في اللون... لا في الرائحة ولا في الضوء.

***

في بعض ليالي الشتاء وعلى نار الموقد، يجلس نزلاء الخان في احدى الغرف أو المجلس للسمر وسماع الحكايات المبهرة التي يدهشهم بها موسى العطار، الراوي الوحيد في الخان، وسواء كانت صحيحة أم لا، فإنهم يستمتعون بها. مرة سأله الصيراوي عن بغداد ومن بناها، لأنه هو نفسه يدعي انه مؤسس هذه البلدة. جلس موسى وقد ضم ساقيه تحته وهي عادته حين يروي حكاية طويلة ومشوقة لا يعرفها هؤلاء. وقبل أن يشرع في الحكاية طلب قدح شاي فقدمه له عزيز، في حين كان حميد السائس يعبث بعود يحرك

به جمر الموقد، أما مصطفى فكان يتأمل النار التي تنعكس على وجه عزيز الكثير التجاعيد، **قال موسى**:

(بعد مقتل الخليفة الأموي مروان في 27 ذي الحجة 132 هجرية، على يد الخليفة العباسي الجديد أبو العباس، في نهاية صراع هاشمي وأموي على الخلافة، وبعد أن نكل الخليفة الجديد الذي لقب بالسفاح بأعداء الأمس حتى انه نبش قبورهم وصلبها من جديد ثم جلدها، وبعد أن بويع الخليفة استقر في بلدة الكوفة، وصار قصره يسمى يزيد بن هبيرة، لكنه بنى ضاحية جديدة تسمى الهاشمية التي صارت دارا للخلافة، لكنه هجرها وشيد بلدة اخرى(**الأنبار**)، وحين مات وجاء بعده أبو جعفر المنصور اختار الهاشمية أول الأمر لكنه تركها لكثرة خصومه من العلويين فيها ومناخها الصحراوي الحار والعواصف الرملية التي تعمي البصر، الى قرية صغيرة يقال لها(**بغداد**) أعجبه مناخها الطيب وموقعها

الحصين بين دجلة والفرات وكونها على تقاطع طرق المواصلات بين الشام وخراسان. ذلك العام المصادف 144 هجرية قرر ابو جعفر المنصور بناء عاصمته. وضع المهندسون حب القطن فوق خطوطها وأحرقوه ليلا وكان الخليفة يرى ذلك من مرتفع، وبيده وضع حجر الأساس وسماها دار السلام. كانت محصنة بسورين).

واصل موسى الحكاية: (سور داخلي واخر خارجي. وحول السور الخارجي حفر خندق عميق يجري فيه الماء من نهر كرخايا الذي بنيت عليه عدة جسور وبنيت عند كل سور أبراج شاهقة كابراج قتال، ومنها أربعة أبراج ضخمة يمكن الصعود اليها على الخيل وتقع على أربعة ابواب كبيرة:

باب خراسان على نهر دجلة.

وباب البصرة نحو الجنوب.

وباب الكوفة نحو الجنوب الغربي.

وباب الشام نحو الغرب.

لهذه المداخل الأربعة نقلوا أبوابا أربعة صنعت في مدن قديمة: باب من واسط صنع في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، وباب من الكوفة صنع في أيام الوالي الأموي خالد القسري، والباب الثالث من الشام والرابع من خراسان. بنى الخليقة قصره المعروف بقصر الذهب، وشيد مسجد المنصور، وبنى بين السورين سجن(**المطبق**) ثم الأسواق.

تنقسم المدينة، يروي موسى العطار وقد جحظت عيون نزلاء الخان دهشة وعجبا، في الداخل الى أربع مناطق متساوية، تفصلها

أربعة شوارع يبلغ عرضها اربعين ذراعا، تتقاطع وسط المدينة في الساحة الكبرى، وفي الوسط قصر الذهب ومسجد المنصور وسط حدائق غناء تصدح فيها الطيور وتنتشر سكينة ملكية أخاذة وتمرح الخيول والجواري والحيوانات النادرة، أما أطراف المدينة فقد بنيت حمامات ومراكز للحرس وحفرت قناتان تخترقانها من الغرب الى الشرق تنبعان من نهر كرخايا للتجميل وسقي الأشجار والأوراد في تلك الحدائق. استمر البناء خمس سنوات حتى سنة148 هجرية رغم اختلاف الرواة).

هذه هي المدينة التي ستسمى من بعد بعاصمة الرشيد وتلك حكاية أخرى. لكي تبني مدينة، يقول العطار، يجب أن تبني مسجدا للأخيار، وسجنا للاشرار، ومقبرة للموتى، وحمامات للتطهير، وأسواقا للتبضع، وخانات للمسافرين، وجسورا للتواصل،

وجيشـــــــا قويـــــــا حـــــــين لا تفيـــــــد الأســـــــوار.

***

الرجـل الجـالس الان خلـف نافـذة المطـر يـرى ان الـدبابتين قـد استقرتا فوق الجسر قليلا لكنهما تتحركان الى الامام والى الوراء وقد ارتفـع منهمـا دخـان ابـيض كثيـف. تحـت الجسـر كانـت النـوارس تتخاطف في طيران زلق، كما يمكن رؤية بنايات وشوارع وأشجار وتمثـال الشـاعر ابـو نـؤاس وهـو يرفـع كأسـه للنهـار والأبديـة، ومـع تلاشـى الـدخان بـرزت بوضـوح قبـة كنيسـة في الجانـب الآخـر مـن ساحة الباب الشرقي. في مواجهة الجسر تماما وأمام الدبابتين كانت

تقف جدارية نصب الحرية في مشهد يتناقض مع عنف تلك اللحظة.

***

قال الصيراوي الذي بدا عليه الذهول من حكايات موسى إنه يتمنى في المرة القادمة أن يسمع حكاية هارون الرشيد الملك الذي ضج العالم باسمه، فوعده موسى خيرا اذا مرت الأيام على ما يرام، لأن الأيام كما صار مصطفى الترك يردد مثل السحاب.

***

قبل أن يموت منشي شالوم تلك الميتة الكريهة، تسلل بقوة خفيةً الى عالم كورجية السري المغلق كعالم الخان الذي تدخله الحكايات ولا تخرج منه الا فيما ندر، بل لا تخرج منه نادرا الا عن طريق سائس الخيل المهذار. شالوم ومنذ أول نظرة لكورجية حدس ان خلف هذا الوجه القمري تستلقي حكاية مختلفة كحصاة ملونة في بركة ماء. بما ان عالم الصيراوي قد بدأ يضيق وذاكرته توقفت عند عوالم داخلية متلاشية، فقد صار يتسلل في أعماق الليل الى غرفة كورجية حين يكون حميد السائس في زيارة لضريح أو امام وخاصة في مواسم عاشوراء وهو تقليد حرص عليه حتى في أسوأ ايامه فجورا كي يعود طفلا وتمحي كل الذنوب كما كان يقول بصوت طفولي وهو يروي وقائع السبي الكربلائي بصوت حزين ومجروح.

حرصت كورجية على وضع شالوم في الاختبار لعدة سنوات قبل أن تبوح بحكايتها الحقيقية وكان من جانبه يشم في الهواء، رغم

تعطل حاسة الشم لديه من معاشرة القاذورات، رائحة حكاية عميقة ومحيرة خلف هذا النقاب المزيف الآسر الذي كان يشعل لدى مروره فتنة الغواية في القلوب، خاصة قلوب هؤلاء الذين قذفوا الى هذا المكان من عوالم غامضة أو ارحام منسية.

إن اسمها الحقيقي ليس كورجية فهذا اسم مستعار لراقصة ملهى الف ليلة وليلة الشهير في بغداد حبابة وكان اسم أبيها عبد الله عازف الكمان المعروف في ملاهي بغداد منتصف القرن الماضي. كانت حبابة عبد الله لا تعمل عادة في ملهى يعمل فيها الوالد كي لا يعرف احد انها مسلمة، وهو تقليد كان معروفا في تلك الأيام، فحملت اسما ثانيا هو ماريا يعقوب.

مع الأيام حاولت الغناء بعد أن ذاع صيتها في الملهى لكن جمالها الحالم وهي ترقص على ايقاع الطبال سليم غندور كان يسلب القلوب والعقول والرصانة حتى من اصحاب المقامات العالية كما

تروي لشالوم في ليلة غياب حميد السائس وسفره الطقسي الى كربلاء، حتى كان ذلك اليوم المشؤوم يوم وقع في هواها ابن تاجر غني فطار كل شيء فيه بما في ذلك عقله ونقوده وحياته. كان يزورها دائما في شقتها في الكرادة الشرقية حين لا تكون في نوبة عمل أو قادمة منه. عرض عليها الزواج فلم تقبل ولم ترفض لكنها عاشت معه كعشيقة سرية بصورة كاملة ولم يكن هذا يرضيه.

كانت أعصابه تتهاوى وهي تزداد غنجا ودلالا وجمالا. طلب منها ترك العمل في الملهى فرفضت. حاولت التخلص منه بكل الطرق فلم تفلح. حين كانت تصعد على مسرح الملهى وتغني أغنية الجارية حبابة للشاعر ابن الاحوص، كان العالم يغيب عن ناظريه فيدخل في تيه حريم خليفي وقصور مترعة بالدهشة والغناء والرقص والنبيذ والعشق فينسى حتى اسمه الحقيقي:

ألا لا تلمه اليوم إن يتبلدا

فقد منع المحزون أن يتجلدا

اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكـن حجـرا مـن يـابس الصـخر

جلمدا

واني لأهواها وأهوى وصالها

كما يشتهي الظمآن ماءاً مبردا.

كما انتهت حكاية حبابة الجارية مع الاحوص نهاية حزينة حين نفاه الخليفة عمر بن عبد العزيز الى جزيرة دهلك في البحر الأحمر، لتعرضه لنساء الأسر الشريفة، وماتت حبابة بعد أن شرقت بحبة رمان، انتهت حكاية غرام حبابة الراقصة أو ماريا يعقوب تلك الليلة الكالحة السواد حين دخل عليها العشيق السري ثملا، تالفا، وقد هددها بالقتل ان لم تترك العمل في الملهى. كان رفضها قاطعا هذه المرة وهددته بالطرد من المنزل ومن عالمها الخاص.

ذهب الى الحمّام ثم ندت صرخة موجعة متأوهة كصرخة حيوان ذبح فجأة. حين وصلت ماريا وجدته نصف مذبوح ونصل السكين مغروز في العنق النازف. خطر ببالها حالا ان شخصا ما في المنزل وإلا كيف حز العنق بالسكين؟

في الفوضى والهلع والارتباك فكرت ماريا ان حياتها توقفت عند ذلك اليوم وانها ستقضي العمر كله في السجن أو الشنق. حملت معها تلك الليلة كل ما تملك من مال وحلي وخرجت الى الشارع بحقيبة واحدة لا أكثر، ومن محطة السيارات الى هذه البلدة ثم خان الصيراوي. لم تزر بغداد الا مرة واحدة بعد كل هذه السنوات.

مات الأب أو اختفى أو شنق أو قتل. قيل إنه هرب خارج الحدود على قدميه بعد ان عرفوا ان ماريا هي ابنة عبد الله عازف الكمان المعروف، وقيل إنه اغتيل أو مات في السجن. وكما نفي الاحوص الى جزيرة دهلك، نفيت هي الى خان الصيراوي كي

تصير حقلا لشهوات هؤلاء المشردين الذين خرجوا من ارحام مجهولة الى عالم الحيرة والخوف والرغبات الناقصة والمهربة.

طلبت من شالوم مرة أن يساعدها في الهروب خارج الحدود، كي تتخلص من هذه الحفرة الجديدة، حفرة الخان، وعوالمه، ووعدته بمال كثير، لكن منشي شالوم الذي تقلصت حدود عالمه بحدود بالوعة الخراء، لم يعد يعرف ان حدودا اخرى للعالم غير هذه، وتصور ان ماريا تمزح معه لا أكثر. لكنه وعدها بالحصول على وثيقة ولادة بعد أن تم تثبيت الاسم الجديد وتاريخ ولادة مزيف ومحل ولادة مزيف فصارت تدعى حسب الأوراق الرسمية بكرجية عبد العزيز الاحوص كي لا تنسى عالم الجارية حبابة.

الصيراوي من جهته اكتفى في السنوات الأخيرة بطقس التدليك الليلي الذي كان أشق عليه من هجوم حفنة ذئاب كما كان يقول بينه وبين نفسه في خلواته. مرة واحدة فقط حاول أن ينهي العملية

كاملة لكنه سقط كجورب عتيق تحت قدميها وحملته كسمل ممزق كي يستقر على صدرها العاري مثل برية من البياض والموت والشهوة والجنون البهي، أما هو فكان يئن، لا تدري هل من ألم أم من الخيبة المصاحبة لهذه الشهوة العاجزة؟

ما عدا هذه الطقوس الليلية فلا شيء للصيراوي ما يطلبه من ماريا يعقوب التي تحمل اسم كورجية عبد العزيز الاحوص والفارة من بغداد، راقصة الملهى، والمتهمة بجريمة قتل عشيق وجد مقتولا في حمامها بيد غامضة.

مع طقوس التدليك الليلية صارت حكايات العطار في بعض الليالي وبالتوازي معها أحيانا جزءاً من طقوس الصيراوي التي يحرص عليها كمواعيد الصلاة. كان يجلس مرة وحيداً ضجراً من هجرة النزلاء وانشغالاتهم حين جلس موسى جاهزاً للشاي والسمر

والحكاية. سأله الصيراوي عن هارون الرشيد **فأجاب موسى كما لو انه يقرأ من كتاب:**

(على قول الطبري هو هارون الرشيد، ابن الخليفة محمد المهدي، ابن الخليفة المنصور، بن محمد، بن علي، بن عبد الله، بن عباس، عم النبي الأعظم، ابن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي... كان مديد القامة، عَبْلَ الجسم، غير بادن ولا نحيف، أبيض البشرة، في وفرة جعدة فاحمة، وجبين ناصع، وعينين كبيرتين دعجاوين، لهما نظرات نافذة، وانف دقيق مستقيم، يتناسق مع فم رقيق الشفتين، ذي نبرات صافية عذبة، ولهجة فصيحة، ولحية سوداء، وقيل انه كان أجمل أحفاد المنصور وجها..).

توقف موسى قليلا وهو يصغي للمطر فوق السقف **ثم واصل الكلام:** (ولد هارون في نفس سنة الانتهاء من دار السلام أو بغداد حين انتقل اليها المنصور من الهاشمية. كانت أمه جارية اسمها الخيزران اشتراها المنصور من منطقة جرش اليمنية في سوق للجواري وأهداها لابنه محمد المهدي الذي اعتقها من بعد وصارت من اقوى نساء ذلك الزمان وربما هذا الزمان). انطفأت نار الموقد فسكت موسى ونهض ببطء وانصرف للنوم.

***

حين مات منشي شالوم في تلك الوقعة الشنيعة مات معه سر ماريا. عادت مرة أخرى في هذا الخان وفي المحلة الذي صارت تعرف فيها بعض النساء بعد أن اشترت ماكنة خياطة كي تبرر وسيلة العيش، عادت من جديد بلا هوية أو ذاكرة اضافية وغرقت

في سرها كما غرق مصطفى الترك في هذياناته وصار يتحدث عن فضائح ووقائع ظلت مستورة أكثر من نصف قرن، كما غرق الصيراوي في ذكريات عالم بعيد، كما غرقت صفية في حاضرها الصلب الراسخ المتين بلا ذكريات، كما غرق يوسف في حوادث تلك الظهيرة المهلكة.

الوحيد الذي كان مغلقا على عوالمه هو عزيز صباغ الأحذية. إن ذاكرته مثل صندوقه لا تنفتح الا عند الحاجة وفي اقتصاد وتحوط وحذر مفرط للغاية، أما حميد سائس الخيل فهو يروي وقائعه اليومية في كل مكان كما لو ان حياته، كجسده، ليست ملكا له بل ملكية عامة، لكن شيئا واحدا حرص على أن يكون بعيدا عن الهذر هو عالم الخان وخاصة عالم الصيراوي الذي شرع في سنواته الأخيرة يروي حكايات غامضة عن ملوك وزيارات وحوادث قتل وثورات وحوادث سطو واغتصاب جنسي وحروب واغتيالات سياسية ودسائس كان شاهدا عليها أو كان في بعض الأحيان

شريكاً من دون أن يتحقق أحد من صحتها، رغم ان انطباعاً عاماً بين نزلاء الخان على أن الحكايات الحقيقية غائبة عن الصيراوي وانه يخلط الحقيقة بالخيال . الأمر الذي يستهوي الرجل الجالس، الآن، خلف نافذة المطر، لأنه يعتقد أن التطابق بين الخيال والواقع أمر غير ممكن كما انه غير مطلوب في الحكايات.

روى مرة لمصطفى ترك الذي كان هو الاخر يعاني من بعض التشوش ويبادل الصيراوي حكايات مماثلة على سبيل التحية أو التحدي أو الزهو وهي عادة كل منسحب الى نفقه النفسي السري، وعوالمه الكهفية، كيف ان الملك فيصل الأول قد زاره في الخان وقضى ليلة كاملة على سطحه يراقب البلدة والنجوم البعيدة وفي الصباح قال للصيراوي وهو يشد على يده:

. " انت منذ اليوم صاحبي الوفي".

من جانبه رد عليه مصطفى ترك ان وفاء الملوك مثل وفاء القطط، وسرد حكاية لا تقل اثارة حتى لمصطفى المذهول من تطور الحكاية خلال الحكي. روى له كيف انه نقل الزعيم عبد الكريم قاسم يوما مع نفر من الأفندية الى مكان مجهول خارج بغداد قبل الاطاحة بالملكية وحين زار الزعيم البلدة في موكب تاريخي لا ينسى بعد أن أقاموا له جسراً متنقلاً على عجل كان اعجوبة تلك الأيام، لوّح له بيده باسماً والتقط صورة تذكارية معه لم تصله حتى بعد مقتل الزعيم، وحسنا فعل المصور كي لا تصبح تلك الصورة دالة عليه بجرم سياسي كما تطورت الامور في السنوات التالية.

ماريا يعقوب وحدها محرومة من الحكايات وعليها تقبل العيش حتى اشعار اخر تحت اسم غير حقيقي، ونقاب غير حقيقي، وحياة غير حقيقية. إذا حكم على هؤلاء بالعيش في هذا المكان والى الابد، وبرواية الحكايات الى الأبد كي تبرر معنى وجودهم، فإن صفية محكومة بالنسيان، نسيان الماضي كله، نسيان الجسد

كله وقبول العيش مع زريبة عجول هي كل حدود عالمها الذي تقلص هو الاخر كعالم منشي شالوم، أو حميد السائس، أو الصيراوي، أو كورجية، أو مصطفى الترك، أو عالم يوسف وعدوه الميت الذي يحاصره في الحلم بعد ان حاصره في الحياة، كعالم رجل المنفى خلف نافذة المطر. أين البطل في هذه الحكاية؟

وحده عالم موسى العطار كبير وملون. من بين كل نزلاء الخان فإن العطار لم يحاول الاقتراب منها واكتفى بتحية مفعمة بالاحترام والغموض. هذا الرجل، تقول كورجية مع نفسها، الذي يروي حكايات الماضي ربما لا يعرف ماذا يدور حوله، مثل أي رواي حكايات تلك الايام حيث المطلوب نفي الواقع، ونفي الخيال، والكلام عن واقع افتراضي وبخيال مبتور، ورغم هذا هناك فجوات وثغرات وفتحات يتسلل منها الخيال كما يتسلل منها الواقع لكنها

مناطق محفوفة بالخطر، وليس هناك سوى حكاية واحدة هي حكاية السلطة وليست سلطة الحكاية.

لا تعرف كورجية لماذا يصر الصيراوي تحت التدليك على سرد حكاية مطولة مملة كل مرة بلا توقف؟ هل ان ماضيه البعيد يكون تعويضا عن عجزه المتهالك الفظيع المحزن؟ هل تستطيع الذاكرة أن ترقع ثقوب الحاضر الخاوي؟ روى لها وهو بين اللوعة والموت واليأس كيف ان احد رجال ثورة العشرين زاره في الخان مطاردا وهاربا مطلوبا للصلب في ليلة ماطرة فسمح له بالدخول. في عشرينات القرن الماضي كانوا يسمون الشنق أو الاعدام **بالصلب** لأن القتل بالرصاص أو الشنق لم يكن معروفاً.

روى له الرجل حكايته كاملة بدون مواربة. قال له الصيراوي:
ـ " لذلك سوف تنام في الخان رغم ان الغرف مزدحمة بالزبائن الليلة".

قال له الرجل على موقد منتصف الليل، وكان الصيراوي يومها شابا مليئا بالعنفوان والقوة والأمل إن اسمه سالم الدفار والجندرمة الانكليز يطاردونه في كل مكان وانه مهدد بالصلب.

رد عليه الصيراوي بحماس:" تصرف كأنك في بيتك".

شكره الرجل كثيرا وغادر الخان بعد عدة أيام.

الشيء الوحيد الذي لا ينساه، يقول الصيراوي بلوعة، ان الرجل **صُلب** بعد ذلك بفترة قصيرة من قبل الانكليز عندما قُبض عليه نائما على اثر وشاية، فبكى وهم يشدون وثاقه، أسفاً، لأنهم ضبطوه نائماً وحيداً أعزل.

يضيف الصيراوي بحزن واضح:

." الرجال تبكي من الضيم".

مرة روى لها بدوره كيف ان الخليفة هارون الرشيد كان يصلي في اليوم مائة ركعة الا اذا كان مريضا وكيف انه أقام مئذنة من جماجم الاعداء كما يقول موسى العطار ومع ذلك كانت له في قصره في بغداد أكثر من ألفي جارية. بعد هذا الرقم لم يعد حميد السائس يسمع شيئاً. دخل في فردوس متخيل وغرق في عطور ورياش وخيول وطيور وأزهار وسرير خليفي وحمامات ساحرة. حاول بكل الوسائل أن يوزع رقم الالفي جارية على عدد أيام السنة فلم يفلح. حين سأل الصيراوي موسى العطار يوما كيف يمكن لرجل مثل هذا أن يحكم؟

أجابه العطار باسما:

ـ " في عصر الرشيد صارت بغداد مدينة العلم والفن والترجمة والرخاء وملتقى شعوب العالم. هذا الخليفة هو رجل قبل كل شيء. هل تعقل انه كان قلقا مرة فسأله الأصمعي عن سر قلقه فأجاب

بأنه لا يقوى على شراء الشاعرة الجارية عنان لان سعرها باهظ. رد عليه الأصمعي ممازحا غير مصدق: أفيسّر أمير المؤمنين أن يجامع الفرزدق؟ على قول الأصبهاني: قهقه الرشيد حتى استلقى على قفاه.

رغم كل هذا الشرح اليائس الا ان حميد السائس لا يفهم كيف يمكن لرجل من هذا النوع أن يهزم ملك الروم ويجعله يخضع ويتوسل؟ قال موسى العطار يوما على موقد النار بحضور نزلاء الخان ما عدا كورجية ان هذا الخليفة الذي هزم الروم وكل الأعداء، كان رقيقا وكان يشكو من ظلم النساء له الأمر الذي شكل على جميع المستمعين رغم كل الشروحات. انه ليس شخصا يمكن وضعه في مكان واحد وقالب واحد، فكر الرجل الجالس أمام نافذة المطر، وتلك الشخصية المتعددة، أي الطبقات، ليست سطحاً ولا

شخصية نمطية، ولا ببعد واحد، بل هي تمضي في عدة اتجاهات متناقضة في الظاهر لكنها تشكل نسيجاً واحداً.

قال الرشيد بلوعة:

ملكت الثلاث الآنسات عناني

وحللن من قلبي بكل مكانِ

مالي تطاوعني البرية كلها

وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك الا أن سلطان الهوى

وبه عززن أعز من سلطاني.

هذا الخليفة المقهور من ظلم ثلاث آنسات وهن ثلاث جاريات على قول صاحب الأغاني (سحر وضياء وخنث) هو نفسه، يتابع موسى، صاحب هذه الرسالة الى الامبراطور البيزنطي نقفور :(**من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمع**). تلك الرسالة على اثر تنكر نقفور لمعاهدة وقعت بين الأم إيرين سنة 797 ميلادية وبين الرشيد فكتب نقفور بعد نكث الوعد الى هارون:

(**من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرّخ،واقامت نفسها مقام البيدق، لكن ذاك من ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدي نفسك بما يقع المصادرة لك، وإلا فالسيف بيني وبينك**). مما جعل الرشيد يجهز

جيشا ويقوده بنفسه حتى أبواب الامبراطور، وعلى قول الطبري، يتابع موسى (**شخصَ من يومه حتى أناخ بباب هرقلة، ففتح وغنم واصطفى وحرق... فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه الى ذلك**).

سأله الصيراوي عن أول زوجة للخليفة فاجاب:زبيدة. يقول المؤرخ ابن خلكان:(**أعرس بها هارون الرشيد في ذي الحجة سنة 165 هجرية في قصره المعروف بالخلد، وجاءت الناس من الآفاق وفرق فيهم الأموال**).

يقول موسى وهو ينهض من مجلس الصيراوي بعد منتصف الليل: بلغة ملغزة:

. هل سمعت محمد القبانجي؟ اسمع اذن.

دار الملوك أظلمت عكَب الضيا بسروج

من قلة الخيل شدوا على الجلاب سروج.

لم يفطن الصيراوي ولا حميد السائس ان كورجية ليس لديها ما ترويه من حكايات عكس كل نزلاء الخان كما لو انها محكومة بالنسيان ودفن عالمها عميقاً، بعيداً عن ضوء النهار، وكما لو انهم وحدهم محكوم عليهم بالحكي العلني المفتوح.

بين ذاكرة صفية المعطوبة، وذاكرة ماريا المقموعة، يقف عالم مصطفى الترك الذي صار يتحرك بلا حدود متجاوزاً كل المحرمات والنواهي ربما عن بدايات خرف أو عن قناعة بأن ما لديه من أسرار خطيرة يكفي لامتلاك سلطة ما دون ان يدري ان الامور في السنوات الأخيرة لم تعد خاضعة لسلطة الحكاية بل لحكاية السلطة، وهو لا يعرف عالم كورجية الخفي الذي يجسد كل هذه

المعادلة الظالمة، وان زمن شهرزاد قد توقف وحلّ السيف بدل الحكاية.

***

في أعماق ليلة شتائية طويلة وعاصفة والريح تتسلل كلص بين فتحات الأبواب والحيطان وتمرق عبر الأكواخ، قرر يوسف مكاشفة أمه في أمر ظل يقلقه طويلاً خاصة بعد ان سمع من صديق حكاية المغني مسعود العمارتلي الذي بدل هويته وجنسه وارتدى العقال واليشماغ والعباءة وصار يتصرف كرجل مع انه امرأة وراعية غنم الشيخ واسمها الحقيقي مسعودة، وهاجر أو هاجرت من الريف الى مدينة العمارة ثم بغداد، حيث لا يعرفه احد وذاع صيته كمطرب كبير حتى انه نفسه نسي جنسه وتزوج مرتين، لكنه في المرة الثانية وقع وقعة صقر في فخ، فقررت زوجته الثانية بعد افتضاح الامر وقد

صدمت أن تضع حدا لحياته فدست له السم حتى مات مسعود . مسعودة . مسموما وكشف أمره في مشرحة في احدى مستشفيات بغداد. كيف استطاعت امرأة في عشرينات القرن الماضي في مجتمع ريفي تقليدي أن تبدل، في الظاهر، جنسها، وتخترق عالم الرجال وفي أخطر منطقة وهي الغناء العمومي في فضاء مفتوح؟

قالت له أمه بقناعة لا تلين إن هذا هو أول شيء قامت به عند قدوم صفية من البرية ذلك المساء واكل شيء على ما يرام. على محياها بدا هرم ثقيل وفاح من جسدها عطر شيخوخة طاعنة تبدت في ذبول الأصابع التي صارت كأعواد خيزران جافة.

في الفترة الأخيرة صارت تروي حكاية متخيلة عن المستقبل، عكس مصطفى الترك الذي صار يروي حكايات حقيقية عن الماضي، في حين اكتفى الصيراوي بمزج الماضي بالحاضر بالمستقبل، المتخيل مع الحقيقي، أما ماريا أو كرجية وصفية فهما

في وضعيتين متقابلتين : الأولى جريحة ماضيها الذي صار ظلا يتبعها، والأخرى جريحة حاضر لا يكف عن محاصرتها كل لحظة، فلا ماضي الأولى لها، ولا حاضر الأخرى ملكها.

قالت الأم ليوسف يوما إنها رأت في الفجر القتيل عند باب الحظيرة بوجه غاضب عابس متوعد لكنه اختفى كشبح، حين حدقت اليه وجها لوجه. مرة أخرى، تضيف، رأته يدخل كوخ العجول ثم يخرج مهرولا. لم يتكلم يوسف ولم يرفع رأسه بل حرك نار الموقد بعود جعله يغوص عميقا في الرماد حتى سمع صوت تكسره.

بعد يوم واحد من عودة حميد السائس من كربلاء، طعن في مقهى في سوق البلدة بسكين في الخاصرة من قبل غلام هام به حباً أفقده ما تبقى له من صواب. وهو يهذي بين الحياة والموت، طلب السائس الجريح أن يحتفظ بالسكين القاتلة كذكرى اذا قدر له أن

يعيش، وحين غادر المستشفى بعد عملية جراحية ناجحة، وعدة قناني دم تمنى حميد أن تكون من دم المحبوب، علّق السكين على جدار غرفته دونما غسل كي تظل ذكرى الطعنة حاضرة على الجدار وفي الخاصرة وفي الذاكرة.

ذلك اليوم أرعد الصيراوي وأقسم اليمين على طرد حميد السائس على هذه الجريمة لكن تدخل كورجية وطقس التدليك الليلي وحاجة الخان الى سائس مسافدة بين الفرس وحمار الخان المخصص لهذا الغرض وهو مصدر دخل ضروري حال دون ذلك. لكنه لم يعد ينظر الى السائس كما كان يفعل من قبل.

هذه هي الحكاية الوحيدة التي تعتبر تمردا على شروط الاقامة وسلوك النزلاء. فكر الصيراوي على وجه آخر: ما علاقته بسلوك النزلاء وقد دخل الخان مئات الافراد من ملوك وزعماء وثوار ولصوص وقتلة وسياسيين ومشردين بما في ذلك كورجية التي تقبل

وجودها هنا بلا شك أو مساءلة؟ أعماه، يقول مع نفسه، وهجها وبياضها عن كل شك.

من بين كل نزلاء الخان، فإن عزيز صباغ الأحذية هو الوحيد المؤتمن على أسرار الصيراوي خلا أسرار القلب فهذه أسرار يجب أن تمضي معه الى القبر دون أن يتخيل مرة واحدة تلصص حميد السائس على غاراته الليلية ولا دراية منشي شالوم بالامر، وربما مصطفى الترك الذي صار يهذي بوقائع غريبة.

روى له عزيز في الليلة الماضية وبعد مرور أعوام على موكب الرجل المرجوم والبريء، كيف ان الرجل مات في السجن كمداً وقهراً وذلاً. حكى تفاصيل دقيقة عن نهار القتل. قال انهم حفروا قبراً للفتاة وهي جالسة تنتحب بهلع، بحضور شيخ دين، وطلبوا منها أن تشارك في الحفر وبعد الانتهاء استلقت داخله مفصلاً على قياسها وداخل الحفرة القبر عقدوا لها محاكمة عاجلة.

اعترفت الفتاة المذعورة بمسؤولية الرجل البريء كي تنجو. انهالت عليها السكاكين والخناجر والفؤوس. طلبوا منها وهي تنزف أن تشارك في طعن جسدها ففعلت بحماس كما لو انه لم يعد جسدها بل صار عبأً ثقيلاً تريد التحرر منه.

مرق في خاطرها وهي تنزف مرج أخضر ودغل كثيف وشاب يطاردها في الحقل حتى امسك بها في نهاية لعبة درجوا عليها في بعض أمسيات الصيف الحارة. أوشكت على قول شيء اخر لكن طلقا ناريا في الرأس حال دون ذلك فتأوهت كعصفور في بركة دم. تلك الليلة لم يشرق قمر على أي مكان عدا حفرة الموت.

خلال مرور الموكب الرئاسي الصاخب من أمام الخان في أوائل ثمانينات القرن الماضي، دوت ضحكت الصيراوي مجلجلة في الضوء النهاري المغبر، ولا يزال حميد السائس حتى بعد الطعنة الغادرة من

يد المحبوب العاق يتذكرها جيدا ، بل يتذكر بقوة كما اليوم تلك الجملة المخيفة التي تفوه بها الصيراوي، الجملة الخطرة والملغزة المستفهمة:"**مغتصب؟**" لكن البريق الصاعق لجسد كورجية وهي تستسلم له كلما هاجت أشواقه الليلية جعلته يتجنب ذكر الحادثة ويطويها مع أسرار قليلة في حياته لا تعني احدا غيره. رائحة حميد، تفكر ماريا، خليط من عرق الخيل والتبن وبهيمة تستحم تحت المطر. حيوان غابي دخل سهواً في الخان.

شعرت ماريا ان جسدها صار وليمة معروضة للجميع بما في ذلك نزلاء الخان العابرين، فقررت الهرب بعد مرور عدة أعوام على تلك الحادثة. زارت صديقة قديمة راقصة في ملهى ليالي بغداد في شارع السعدون وابنة عازف سنطور شهير. عناق حار ودموع. ذكريات وحكايات. قالت لها سوزان واسمها الحقيقي زهور عبد اللطيف، إن والد القتيل هو اليوم مسؤول كبير في الحزب الحاكم، وان قضيتها لم تخمد نيرانها بعد، وعليها أن تواصل التواري حتى النهاية. قالت لها

أيضا إن والدها ربما يكون قد قتل أو اغتيل. طلبت منها المساعدة في الهرب خارج الحدود لكن سوزان قطعت ترددها بشكل حاسم قائلة:

ـ "لم تعد الامور كما كانت. أرجوك لا أحتاج مشاكل، حبابة حبيبتي، أرجوك".

غنت ماريا للمرة الأخيرة قصيدة الاحوص وأجهشتا معا في بكاء طويل متشنج مرير.

غادرت منزل زهور أو سوزان وصممت على المرور من أمام ملهى الف ليلة وليلة في شارع السعدون رغم المطر والريح والتوجس. شاهدت بقلب متفجع موسيقيي الفرقة يدخلون بوابة الملهى هرباً من المطر: عازف السنطور، الناي، العود، الكمان، ضارب الطبل، عازف الكمنجة، الجوزة، الطنبورة، الزنجاري الخ.

لا تدري كم مر من الوقت حين وجدت نفسها تمشي خلسة الى جوار الجدار الخارجي للملهي. سمعت كذكرى طفولية تلك الأغنية التي طالما غنتها بلوعة وحرقة وهي قصيدة للشاعر محمد سعيد الحبوبي التي اشتهرت بها المطربة زهور حسين:

لح كوكبا وامش غصنا والتفت ريما

فان عداك اسمها لم تعدُك السيما

وجه اغر وجيد زانه جيدُ

وقامة تخجل الخطى تقويما

فلو رأتك النصارى في كنائسها

مصورا، ربّعت فيك الأقانيما

التفت بعباءتها لكي تعود الى البلدة، إلى خان الصيراوي الذي بدا الظلام من الخارج يتكوم فوقه بلا ضياء ولا نجم ولا أمل.

***

بين الشك واليقين، تردد يوسف في قبول حكاية أمه عن عودة القتيل لكنه قرر أكثر من مرة السهر حتى الفجر من مكان حراسته كي يرى بنفسه. لم يظهر احد لا في ذلك الفجر ولا في غيره لكنه زاره مرات في المنام ولم يظهر عليه أي تبدل في ملامحه.

كان يبدو في كل المرات ودياً. على موقد الجمر الليلي اخبر امه إنه سيقوم غدا بزيارة ضريح الامام علي وسيقوم أيضا بزيارة قبره في المقبرة العامة المسماة وادي السلام. عثر على القبر بمشقة في مقبرة صغيرة مخصصة للبلدة. وجد حفرة وحفنة عظام متناثرة. قال متعهد الدفن، معتذرا، إن القبر أهمل منذ سنوات ولم يزره أحد فنبشته الكلاب. جمع يوسف حفنة العظام في مكان واحد وقرأ عليها سورة الفاتحة. خاطب كومة العظام بلوعة ومرارة:

. "أرجوك أن تكف عني. خربت عليّ حياتي حياً وميتاً ".

لم يسمع شيئا سوى الريح تمر فوق العظام وتحمل معها الغبار الصحراوي الأحمر.

***

تلك اللحظة بالذات كانت صفية تستحم في الكوخ وهي تتعرف ذاهلة على جسدها الذي نما بعيدا عنها حتى انها لم تتعرف عليه. كانت عيون العجول الصغيرة حمراء كعيون قطط في الظلام. كان شعرها الطويل المهمل يتهدل في حضنها وهي راكعة تستحم مثل قبضة سنابل تلمع تحت الشمس. كانت تحاول أن تمسك كل ذرة من جسدها وتخاطبها. وهي تنهض سمعت رنين شعرها وهو يرتطم بجسدها كسلاسل ذهبية. دخان غريب يطلع من جسدها كدخان مواقد الليل. احتضنت جسدها ودارت في الكوخ بنشوة تصعد من

أعماقها المنسية. تلك كانت المرة الأولى التي تشعر فيها انها تمتلك شيئا في هذه الحياة.

***

صرخت كورجية بعد منتصف الليل، والمطر ينشال فوق الخان، حاداً، وحشياً، متواصلاً، لكن أحداً لم يسمع صرختها الضائعة، حتى حميد السائس الذي يسمع دبيب النمل لم يسمع. لمع نصل السكين تحت الضوء الساطع كظهر ذئب يلمع تحت شمس في ظهيرة محرقة. شمت رائحة الدم كما تشم الموت. سمعت ضرب طبل ايقاعي متوازن عنيف وجسد يرتطم بالأرض. حين أفاقت من النوم، سمعت العكاز الوحيد الذي يجوب الليلة في طرقات العالم.

لم يعد هناك مطر ولا حلم. لا موت ولا حياة. لا يأس ولا أمل. وكما تفعل صحراء تحت الشمس في استسلام نهائي وقدري،

استلقت على الفراش فاتحة فخذيها، كما تفعل عاصمة أمام دبابات غازية، مغمضة العينين، دون أن تهتم بمن يكون القادم.

كانت تسمع فوقها فحيحاً قادماً من غابة مطرية، وهي تشم رائحة الدم، وتسمع طبلاً ايقاعياً متوازناً كأنه قادم من غابة بعيدة مضطربة. يتصاعد الفحيح ومعه الطبل. طبل يأتي من الداخل مع هدير الدم المغلي.

ليلة الخميس تضج بطبل الختان والحفل والرقص الجماعي والاغاني وصفية في الكوخ تحاول في اللحظات الأخيرة أن تتمرآى على بقايا مرآة في حائط مقشر، أمام عيون العجول الحمر.

طبل داعر وحشي لم تسمعه من قبل خارج حدود الحظيرة. طلقات نارية في الخارج. صراخ وطبل. سمعتهم يتحدثون عن قدوم

جنازات جديدة قادمة من حرب الحدود الشرقية. طبل وجنازات. عيون حمر في عتمة الكوخ كعيون ذئاب هذه المرة. أقدام تركض في اتجاهات متقاطعة كما لو ان حريقا نشب فجأة أو كما لو ان طيوراً تتصادم في الظلام.

أمام المرآة لا ترى غير وجه لا يشبهها. لا تعرف من يحدق بمن؟ لو هشمت المرآة، فكرت صفية، هل ستختفي هي الأخرى؟ احتضنت جسدها بلوعة وهي تبتعد عن المرآة . تذكرت ذلك الغسق المسائي المتوهج بالحمرة وهي تسحب شعرها في كل الاتجاهات كما لو كانت تأمل بالطيران مثل أي طائر في شرك يفرد جناحيه للريح. تأجل حفل الختان بعد قدوم الجنازات وعلا من المنازل القريبة صوت القرآن وغرق الناس في أحزان متواصلة.

***

بوجه مذعور وعينين طافحتين بالأسى، دخل عليها حميد السائس على غير عادته وكانت كورجية قد غادرت تواً كوابيس الليل. قال لها بقلب مجروح إن شرطة الأمن سألوه عنها:

." ماذا قالوا لك؟" سألته متوثبة فأجاب خافضا رأسه:

." ماذا تعرف عنها؟ من أين جاءت؟ الخ".

الآن اكتملت حلقة النار والحصار يا حبابة عبد الله، من راقصة ومغنية الى مجرمة هاربة وعاهرة مشردين الى مخبرة للأمن أو قوادة.

. "قلت لهم ان اسمك هو كورجية عبد العزيز الاحوص. فتاة شريفة وتعيش من عملها كخياطة. لا حسب ولا نسب. قالوا إنهم سيأتون لزيارتك الليلة".

ماذا سيحدث بعد كل ما حدث؟ حدثت نفسها وهي تتأمل وجه سائس الخيل الذي يهرم مع الوقت.

راقصة، مغنية، مجرمة، خياطة، عاهرة، أم ماذا؟ حبابة، ماريا، كورجية؟ كل هذه الأسماء، كل هذه المهن، لم تخترها بارادتها . منذ أن كانت طفلة وهي تأتي مع الاب الغائب اليوم الى الملهى حتى تصورته مكان العيش الوحيد في العالم. رضعت الطبل والكمان والسنطور والشعر كما رضعت من بعد التشرد والخوف والذل والنفي والخضوع والانتظار والليل والفحيح والروائح النتنة. ماذا عندك ستخسرينه يا حبابة أو ماريا أو كورجية أكثر مما خسرت؟ ماذا سيتغير؟ مخبرة أو قوادة للحزب أو للأمن. خرجتِ من الملهى مجرمة مطاردةً، وسيكون مصيري في خان الصيراوي قوادة ومخبرة. لكن على من؟ على حميد سائس الخيل؟ على مصطفى الترك؟ على عزيز الصباغ؟ على عكاز الصيراوي؟ على المطر والليل والقذف والبغال والنجوم؟ على من؟ **عند هذه النقطة تساءل الرجل الجالس خلف نافذة المطر: من سيوقف هذا الجيش المندفع والزاحف من كل مكان نحو العاصمة العريقة عام 2003؟**

شعر حميد السائس المهتاج بأن كورجية أقوى من كل ما شاهده في يوم آخر. طلبت منه أن يتركها وحدها. قالت انها ستنتظرهم هذا المساء وليس عندها ما تخاف منه أو عليه. نظرة ماكرة من عيني السائس أصابتها بدوار مباغت. هزته بعنف فاجأها قبله:

." هل هناك شيء آخر يا حميد؟ قل لي".

بوغت وارتد الى الوراء قائلا:

ـ" أبدا. لكني اخشى عليك. غير مقتنع بحكايتك. لا يمكن ان يولد مخلوق من ثقب حائط".

مطر وحشي يضرب حيطان الخان في المساء منذ الصباح. كورجية جالسة ساهمة وقد تعطرت وتركت شعرها الطويل ينسدل على كتفيها حتى منتصف الصدر. تذكرت ان راقصة ملهى ليالي بغداد راحيل سلمان قالت لها يوماً ضاحكةً وهي في أول الانزلاق نحو عالم الملاهي ان الرب نفسه بارك زواج غومر بنت الليل من النبي هوشياع فأنجبت منه ولدا وابنة كما تقول التوراة.

حاولت أن تظهر كل مفاتنها المخبوءة. في المرآة طالعها وجه ماريا القديم، وسمعت اصداء اغنية بعيدة، وصورة طفلة ترقص في الملهى الليلي على طبل حاد وعنيف أمام جمهور هائج. سمعت وقع أقدام قرب الباب.فتحت. دخل شابان يحملان أوراقا. اعتذرت عن بساطة المكان. جلسا صامتين أو مفكرين. قال لها أحدهم إن عليها أن لا تقلق. قالت ليس عندها ما تقلق عليه.

قال الاخر:

. "حسنا، مجرد تحقيق أولي روتيني نقوم به مع الجميع".

سألوها عن الاسم والولادة والمكان والعائلة الخ. قالت إن اسمها كورجية عبد العزيز الاحوص، ومكان الولادة البصرة عشار، المهنة راقصة في ملهى ليلي، تركت المدينة بعد شجار عائلي. سألها أحدهم: هل فكرت في العودة؟ أجابت: مرات لكن الظرف العائلي غير مناسب. سألها الآخر: لكن كورجية اسم يهودي كما

أتصور؟ ردت عليه باسمة: والدي اختاره عند الولادة كي استطيع العمل في ملهى كما يقتضي العرف. سؤال: هل والدك مسلم؟ جواب: نعم. كذلك الوالدة. قال لها الآخر: هل انت مستعدة للعمل معنا؟ ردت: في أي شيء؟ المساعدة في معلومات مثلا؟ ضحكت كورجية بعمق وامتلاء هذه المرة قائلة: على من؟ هل هناك في الخان من يشكل خطراً على أحد؟ قال لها أحدهم بحدة مكتومة: نحن من يقرر ذلك. قالت: اتفقنا اذن. قال لها الآخر وهو يمسك شعرها الطويل المشع الفاحم المعطر: شعرك جميل. حرام هذا الجمال يذوي في هذا الخان القذر. قالت بغير تردد مشجعة: تستاهل. بخبرة راقصة وأنثى عرفت كورجية ان هذا هو الغرض الحقيقي خلف الزيارة ولا شيء غيره.

في أعماق الليل، على صوت مطر لا ينقطع، سمعت كورجية وقع خطوات تقترب، ليس صوت الخطى التي تعرفها، وحدست بذكاء الأنثى من هو القادم. فتحت الباب حتى قبل أن يطرق. شمت

رائحة الخمر والذكر ورغبة محمومة تنبعث من الجسد الفتي أو رجل الأمن الذي لمس شعرها هذا المساء.

بدون أدنى كلمة تعرت تماما بعد أن أطفأت الضوء. أحست بأصابعه تتلمسها قطعة فقطعة.فحيح اخر في هذه العتمة الباردة. أغمضت عينيها كما يفعل انسان مداهم في كهف قديم في انتظار الاغماء أو الموت أو الرجاء.

خيل اليها ان انفاس حميد السائس المتلصص تفح خلف الباب الموارب. سائس الخيول العريق يشم رائحة الجسد العاري على مبعدة أميال كما يشم الحيوان رائحة مرور الانثى في البراري، كما يشم المحتضر رائحة الموت من جسده، كما يشم الضبع رائحة فريسة ولدت تواً. فحيح وطبل.

عاد صوت الطبل الايقاعي قويا حادا مدويا هذه المرة.سمعت حشرجة فوقها.سكن الرجل وغادر في الظلام كما لو أن شيئا لم يحدث هذه الليلة أبدا، كما لو انه دخل في مبولة عمومية وخرج، كما لو انه مر من تحت مصابيح عامة، أو مر فوق ظلال ليلية أو تحت سحاب مرتحل أو مر من محطة سفر. وحده حميد السائس كان يجلس وحيدا في غرفته تلك الليلة وهو يغرز اصابعه في تراب الحائط المتهالك. وحده الحائط يعرف أحزان الغرباء. **بعد مرور سنوات على ذلك، ستقف دبابات، فوق جسر الجمهورية، كما يقف طائر فوق منارة، في نوع من الاستسلام الغريب الشبيه باستسلام ماريا في الخان، تحت المطر.**

***

مثل كل مخلوقات المكان، فإن حمار الخان مجهول الأصل هو الاخر. قال الصيراوي إنه عثر عليه تائها في البرية بعد موت الحمار

القديم المخصص للمسافدة بينه وبين الخيل، وتمكن حميد السائس من ترويضه بمشقة ولا يعرف الصيراوي، يقولها ضاحكا، من روض من؟

يأتي الريفيون بأفراسهم إلى الخان وتسلم لحميد الذي يتولى الباقي. يقوم شخص ما بمسك لجام الفرس في حين يقوم حميد بجلب الحمار الضخم والقوي البنية ويقربه منها. بعد شم رائحة الفرس من الخلف، يتشنج ويصعد بعد أن يكون عضوه قد التصق ببطنه، يتولى السائس مسك العضو المنتصب ويدخله في المكان المطلوب حتى يتراخى وينزل وهو يواصل شم مؤخرة الفرس والتمسح به.

***

جفل مصطفى ترك حين قال له الصيراوي على غير توقع في جلسة ليلية على موقد الجمر في الخان وفي الهواء رائحة ربيع وعطر أزهار وأريج تفتح براعم:

ـ "قلت لك ان الملك غازي قتل في حادث سيارة ولم يُصدم".

شهق الجندي العثماني القديم وكاد أن يبتلع لسانه لكنه استدرك قائلا:

ـ " أنت لم تقل هذا أبدا. كما انني كما تعرف لا أتحدث في هذه الامور".

لا يزال الصيراوي يتذكر جيدا وقائع ذلك النهار الذي قتل فيه الملك غازي في حادث سيارة غامض كأنه حدث بالأمس(1939/4/5). يتذكر انه في ذلك النهار كان قد انتهى من بناء اخر غرف الخان التي تسكنها اليوم كورجية وقام بعملية تسافد سريعة مع فرس حرون، واستعد لصلاة الظهر يوم سمع نحيب امرأة يأتيه من أطراف البلدة التي لم تكن بحجم اليوم.

***

تقع البلدة على حافة نهر دجلة العريق في القدم ويستطيع هو الصيراوي ان يقسم على انه هو مؤسس هذه البلدة ويعرف كل شجرة فيها وحجرة وبيت ونغل ومقهى مع ان كتاب مؤرخ البلدة الوحيد صيدلي الأعشاب الطبية لا يذكر ذلك في كتابه عن تاريخ البلدة.

يتذكر جيدا تلك الأيام يوم كانت البلدة تنام وتصحو بسلام وطمأنينة قبل زمن الأحزاب والانقلابات ومركز الشرطة ودائرة الأمن. كان كل شخص يتوجع يشاركه الجميع، كل امراة تطلق يطلق معها الجميع، كل محتضر ينام قربه الأصحاب والجيران والاقارب والغرباء حتى يموت، كل مصاب بالحمى يتألم معه الجميع، كل غريب يحزن، يتذكر الناس حزن الغرباء، كل فقير يموت

يخرج معه الجميع الى أطراف البلدة حتى المقبرة، كان اليتامى يرتدون أفضل من غيرهم، كانت أراجيح العيد مهرجان فرح، لا أحد ينام جائعا لأن النخل وفير وبساتين الفاكهة تضج بالثمار، والنهر يجري كما كان يجري منذ اول يوم طلعت فيه الشمس على هذا العالم، كانت حيطان المنازل الطينية محمية بالشوك وكسر الزجاج، وأكثر من ذلك بالعرف وقدح شاي شرب يوماً، حتى لصوص ذلك الزمن كانوا لا يتجاوزون على حرمة فقير أو أرملة أو عجوز أو يتيم أو غريب الدار.

لصوص ذلك الزمن كانت لهم مرجعية. ديك واحد يأمر البلدة بالنهوض من النوم قبل أن يتأسس الجامع، صرخة استجارة تهز السكون العام وتجعل النجوم ترتعش، حتى كلاب البلدة كانت لا تنبح على امرأة أو طفل أو شيخ طاعن في السن، جنازة واحدة تحول البلدة الى مأتم، عند كل مساء يرتفع عواء الثعالب من الغابات المجاورة المحيطة مختلطا بنباح الكلاب وأعراس الصيف وفرح

الخيول وبريق النجوم، حتى القمر كان يشرق بالمحبة والنور والعافية وليس هذا القمر الأصفر الغريب، عبّارة واحدة تكفي لنقل كل سيارات البلدة بين ضفتي لنهر، مداخل البلدة مفتوحة للجميع من كل الجهات، ولم يعرف أحد بعد عادة غلق الأبواب وشراء الأقفال الثقيلة إلا بعد زمن الاحزاب وظهور المشانق، نخلة واحدة وشبكة صيد وبقرة أو جاموسة أو عنزة تكفي لعائلة كاملة، الفوانيس معلقة في فضاء الليل مثل كواكب مشعة حتى الغبش، قبل يأتي زمن المصابيح والمشانق والخوف والايديولوجيا.

قالت المرأة للصيراوي بعد أن اهتدى لمصدر النحيب:

. "قتل الملك غازي اليوم".

لم يكن الصيراوي قد شاهد الملك حتى ذلك اليوم رغم انه في حكايات ليلية أخيرة قد روى عنه بعض الوقائع التي تجعل قلب مصطفى الترك يضرب كحافر جواد مفزوع. أضافت المرأة:

. "حادث سيارة، يقولون".

اليوم يقسم الصيراوي بالمصحف الكريم على ان الملك غازي قتله الانكليز في حادث سيارة مدبر وترك الامر لوصي مخنث يقضي معظم وقته في ركوب الخيل مع جاكي خيول مريب وفي قيادة السيارات، وفي رعاية ولي عهد لا يزال طفلاً. كرر ذلك على مصطفى الترك مرة أخرى فنهض الأخير محتجاً وتوارى في ظلام الخان.

في تلك اللحظة كانت كورجية تحلق شعر العانة بأدوات حلاقة حميد السائس الذي قال لها إن ذلك يسعده كثيرا كي يشم رائحة ذلك الشيء كعطر نباتي بري مهيّج.

دون ان يرفع رأسه واصل الصيراوي سرد حكاية الملك غازي حتى بعد ان غادر مصطفى الترك الغرفة:

. " قبل ليلة مقتل الملك غازي حلمت بطائر أسود يحط فوق غرفة حميد السائس حتى قبل وصوله الخان ولا أدري لماذا الطيور السود في الأحلام لا تحط الا على تلك الغرفة؟ ترك ورقة كانت في منقاره قرأها لي أفندي مار من أمام الخان تقول إن الملك غازي سيسبح نهار غد في بحيرة حمراء. قلت لك ذلك يا مصطفى الترك في صباح اليوم نفسه. هل تسمع؟".

حين رفع رأسه كان مكان مصطفى الترك فارغاً، لكنه واصل كلامه الى الليل كما لو انه يروي كي لا يموت أو يجن:

ـ " حدث الأمر نفسه ليلة مقتل الزعيم قاسم(9 شباط 1963) رحمة الله عليه، جاء الطائر الأسود نفسه فوق الغرفة نفسها عند وصول السائس الى الخان بوقت قصير كما لو ان الطائر الأسود كان نذير شؤم بقدومه، والحكاية نفسها والورقة في المنقار. في الصباح اعلن الراديو خبر مقتل الزعيم ثم كانت صورته على شاشة التلفزيون جالساً على كرسي وقد خرمه الرصاص. لم يصدق أحد

حكاية مقتل الزعيم تلك الليلة ولا في ليلة أخرى وقالوا إنه تمثال شمع وانها خدعة والى اليوم ما يزال هناك من ينتظر قدومه. هل تسمع؟ طرق باب الخان طارق في الليلة التالية لمقتل الزعيم في منتصف الليل وكان المطر الشباطي ينهمر بجنون. خرجت بنفسي وفتحت الباب. وجدت رجلا بعقال وكوفية بهي الطلعة، حسن الوجه، مضيء الملامح، عليه انهاك سفر أو ألم دفين، طلب مني المبيت هذه الليلة. دخل. حجزت له أفضل غرف الخان وهي غرفة منشي شالوم رحمة الله عليه الذي كان في زيارة لضريح النبي العزير في البصرة. قلت له وانا أستيقظ من بقايا منام عكر إن وجهك ليس غريبا عني؟ تبسم الرجل البهي الوجه ولم يقل شيئاً. قلت مرتبكاً: ألست أنت الزعيم؟ قال لي بهدوء رجل صومعة هادئ:

." ذاكرتك قوية".

لم يقل أكثر، فقلت بما يشبه الغيظ الرحيم:

."كيف ذاكرتي قوية وانت حتى اليوم ملء السمع والبصر؟".

لم يزد حرفاً لكنه في الصباح كان قد توارى تماماً بعد ان ترك لي اجرة المنام عند رأسي وفي فراشه وجدت بقعة دم باقية حتى اليوم في فراش شالوم الذي قال إن دم الأبرياء بركة. هل تسمع يا مصطفى الترك؟ منذ تلك السنوات تواصلت زيارات الطائر الأسود ولم تنقطع حتى بعد الانقلاب الأخير ونشوب الحرب مع ايران".

كان يمكن لهذه البلدة، يقول ضاحكا حتى بعد ان تأكد له مغادرة مصطفى الترك الغرفة، أن تكون امارة وأكون أميرا عليها لو لا فوضى الأحداث، وتكون كورجية، ترتفع ضحكته، أميرة في هذا الخان الذي كان من الممكن أن يتحول الى سراي كبير، ويصبح حميد السائس بدل السباحة في مني الحمير وحمل العضو المنتصب، مسؤولا في قيادة الجيش أو الشرطة أو العسس السريين. لكن ما حاجته الى كل هذا الهوان وقد صار الموت للوجهاء والأعيان

والزعماء والشيوخ المتصارعين على المناصب كديوك الرهان خاتمة منتظرة وطبيعية كنزول المطر؟

قبل سنوات ضاعت عليه من كثرة القتل والموت الهاطل على حياة البلدة قُتل شيخ قبيلة في النادي على صراع حول مجلس النواب الملكي. قام باطلاق النار أحد عبيد الشيخ وهو عبد مخصي. هل كان هذا المخصي جزءاً من صراع السياسة أم انه ينتقم من خصيه العلني المشاع وهو تقليد شائع بين بعض شيوخ القبائل كهوية لخدم الشيخ وعلامة تحذير للحريم؟

صار الصيراوي في الفترة الأخيرة يتأخر عن طقوس التدليك الليلية بعد أن تحولت في نظره الى حفلة جلد. لا هو قادر على اكمال العملية ولا هو رضخ لتعفن الجسد. كل حشرجة تصدر منه وهو متهالك تحتها تحرق أبواب السماء، يقول الصيراوي، متبرماً.

***

هذا الصباح المشؤوم سمع كما في منام أو كابوس صرخة سائس الخيل حميد وهو يرغي مثل بعير ضائع في برية وقبل الصرخة سمع الارتطام المدوي كهزة أرضية ففكر أول الأمر ان الخان تداعى كله على رأسه. آخر ما خطر بباله أن يكون حمار التسافد الذي يمثل نصف دخل الخان قد مات فجأة وهو ينط على فرس تشبه في جمالها جسد كورجية وهي تتعرى متلوية تحت الضوء كغزال يستحم في الدغل تحت الشمس في ظهيرة ساخنة.

قال سائس الخيل حميد إن الحمار سقط ميتا قبل أن ينزل وقد هزته رعشة طويلة كما لو أنه صعق، أطول رعشة رآه فيها حتى خيل اليه ان الحمار فقد عقله ولفرط الرعشة وسكون الفرس ورائحة عرق الخيل والبهيمة وهي تنز من الحيوانين الملتحمين شعر السائس حميد بعضوه ينتصب حتى أوشك على القذف وهو امر

حصل مرات في أيام قديمة لكن الارتطام المريع بالأرض وانهيار الحيوان السريع والخاطف والمباغت أوقف كل شيء.

تلك الليلة شعر حميد السائس بخوف داهم وقلق وبهياج جنسي لم يعرفه في حياته و فكر باحتمال أن يتعرض هذه الليلة أو في غيرها لمثل مصير الحيوان المفجع فوق كورجية التي صارت في الفترة الأخيرة تشعله في السرير الجديد كما لو انها قررت التخلص منه بطريقة الشهوة المحرقة أو لسبب آخر لا يعرفه.

***

كان قد اغتسل جيدا لأن كورجية تشعر بنفور وتقزز من الرائحة الكريهة المنبعثة من جسده كرائحة حيوان في بركة بول، كما تقول له دائماً، وحلق شعر الابط والمنطقة السفلية وتعطر بقنينة عطر عثر

عليها وهو يكنس غرفة احد النزلاء العابرين واحتفظ بها لنفسه لمثل هذه المهمة.

كان الصيراوي يقول لبعض جلاسه وبلا مناسبة :

ـ " لحية الشيخ مكنسة عند حميد السائس. لا يحترم أحداً بل يخاف".

هو حميد سائس الخيل يعترف ان خان الصيراوي لا معنى له بدونه، وان شخصا آخر غيره لا يقبل بهذه المهمة القذرة التي جعلته خبيراً في شهوات البهائم أكثر من أي شيء آخر، حتى انه في بعض لياليه مع كورجية يستحضر صوراً متخلية عن بعض الوقائع الجنسية المثيرة بين الحيوانات لكي تزيده لهباً وشوقاً وحريقاً.

كان المساء قد هبط، مساء ربيعي آسر وعذب، والنسيم يمرق على وجهه بنعومة وبهجة، حين انسل الى غرفة كورجية التي كانت مضاءة بالمصباح الكهربائي المشع بعد أن أنقضى زمن الفوانيس في

الخان وفي الشارع، لكنه وهو يقترب لم يسمع الصوت المألوف حين تنحنح خافتاً، ولم يفتح احد الباب كما كان يجري من قبل، وحين دفع الباب برفق ودخل وجد رجلاً يحدق اليه عبر الحائط بعيون مليئة بالشهوة والذعر والذهول. كان وجه حميد السائس نفسه في المرآة لكنه لا يشبهه كثيرا في هذه اللحظة بالذات. بالكاد تعرف على وجهه وهو غاطس في هوة ذهول لم يحسب حسابه يوماً.

***

لم تظهر كورجية في ذلك الليل ولا في كل الليالي القادمة التي مرت على الخان وصارت غرفتها مزاراً للصيراوي المنتحب وحميد السائس وحتى مصطفى الترك شعر بغصة دفينة لأن الانوثة في هذا الخان الذكوري كان يمنح المكان ميزة المكان البشري القابل للاقامة رغم شعور النفي المقيم في اعماق الجندي العثماني القديم الهارب من جيش مهزوم منسحب. ان الجيوش المهزومة، يقول مصطفى

الترك دائما، وهي حكمة سمعها من اجداده، لا آباء لها ولا أبناء ولا قادة، لكن النصر له ألف أب.

حميد السائس نفسه حوّل غرفة كورجية الى ضريح بعد ان انتقل اليها وصار يذوي مع الأيام وفترت همته في الشغل حتى بعد الحصول على حمار مسافدة آخر أقوى من قتيل الشهوة لكنه أكثر رعونة. لا يشابهه في الطباع، يقول الصيراوي، ضاحكا، من داخل حزنه الخفي، الا حميد السائس.

لم يفكر أحد في العثور على كورجية بعد اليوم ولا في أي مكان مفترض سافرت اليه كما لو انها ماتت ولم تترك خلفها سوى الذكرى، والذكرى، يقول حميد السائس وقد سمع هذا الكلام من بعض النزلاء، ناقوس يدق في وادي النسيان، فصور حياتك قبل أن تنفجر. قبل أن تنفجر حياته تحول حميد، بدافع من الياس أو الانتقام أو الجنون، الى راوي حكايات عن نسخة حياته السابقة

والوحيدة التي تستحق ان تعاش وتروى مع كورجية وغرامياته السرية وشبقه الليلي البهي خاصة حين يأتي من عمل منهك مثير ومحفز أو تحت مطر ليلي ينهمر فوق الخان وفوق قلبه وهو يشتعل باللهب والأنين المحرق في وقت بدا ان الخان نفسه يتداعى بعد اختفاء فوانيس الشوارع والهدوء القديم الآسر.

تركت خلفها عطرها على الفراش وفي أرجاء الخان وتلاشت كما لو انها لم تكون موجودة ابداً كما لو انها حكاية متخيلة من حكايات الصيراوي أو هذيانات مصطفى الترك أو الرجل الجالس الآن أمام نافذة المطر، وصار هذا العطر القوة الحقيقية في الخان، والباقي ليس أكثر من أشباح أو صور وهمية تنتجها مخيلة منهكة من الزمن والليالي والأمطار الطويلة المملة كساعات أزمنة الهرم لكائنات تعيش في جوار بين أوجاع الخيل وأوجاع الليل، ونُسيت من الناس والموت والسماء وحكم عليها بالنسيان أو التخيل.

لم تعد كورجية موجودة لأنها أصلاً لم تكن موجودة كوجود بشري محترم. حلم عابر مر على ليالي هذا الخان مثل كل النزلاء المارين الذين تركوا عطرا أو ذكرى أو خاتماً أو بقايا صور كما تترك الريح من صور على الرمل.

***

جفل حميد السائس، في احدى الليالي، على صوت عكاز يضرب الأرض بعنف وقوة كما لو انه يحاول ايقاظ الأرض النائمة يقترب من باب غرفته التي صار يقضي جزءاً أكبر من نهاراته الفارغة ولياليه الخاوية والشاحبة والمملة فيها، لكنه فز مذعوراً على صوت الصيراوي وهو يقول مرحباً:

." حمد الله على السلامة كورجية، ما هذه الغيبة؟".

شعر السائس انه بلا أقدام وان روحه صعدت من أعماقه المليئة بالحصى والطين والعشب والماء والغابات والبهائم والكهوف وصور الوحوش والعواصف والأمطار والبروق والروث، ولم يفلح في النهوض، حتى انه أحس بغيبوبة بطيئة تزحف على جسده، ولم يفق من شلله الا حين رأى نصف العكاز يدخل الغرفة تتبعه أقدام ثقيلة كما لو انها مربوطة بسلاسل ثم أطل وجه الصيراوي كقادم من قبر، شاحباً، تالفاً، مسحوقاً، وهو يشمل الغرفة بنظرة طويلة فاحصة مدققة دون أن يتكلم، ثم غادر المكان بالطريقة المتمهلة نفسها وصوت عكازه يرج الفضاء، كما لو ان وجود السائس من عدمه ليس مهماً حتى تلاشى ضرب العكاز مع المطر المنهمر بقوة وهي يضرب غرف الخان.

***

لا يتذكر حميد السائس ولا أي واحد في الخان بما في ذلك الصيراوي الذي تساوت عنده الأيام والفصول وتشابهت عليه وجوه الخيل والبشر والاشجار والأشباح، الموتى والأحياء، الموت والحياة، نار الموقد أو نار الجسد، عطر الشيخوخة أو عطر التراب أو عطر كورجية، لا أحد يتذكر متى وصل ساعي البريد في ذلك الصباح المنسي، مثل كل الصباحات، حاملا رسالة الى الصيراوي، وهي الرسالة الوحيدة والأخيرة أيضا التي وصلت الخان منذ تأسيسه في عشرينات القرن الماضي لأن نزلاء الخان بلا عناوين ولا أهل أو وطن.

وقف الصيراوي عند عتبة الخان على كرسي مخلع، تهرأ من وسطه، وتقشرت مسانده الخشبية المليئة بخطوط ورسوم وبقع، منتظراً مرور شخص ما لكي يقرأ الرسالة. عثر على صبي مار فقرأ هذا الرسالة وهو يحدق في عيني الصيراوي المأخوذ كما لو انه في حلم مضطرب:

ـ " **السيد الصيراوي المحترم**... لا استطيع نسيان أيامي معكم في الخان، ولا وقائع تلك السنوات الغريبة، ولا وجوه النزلاء فهي حية تعيش معي اليوم. انا اعمل في نفس مهنتي السابقة كراقصة في ملهى ليلي في باريس، واسمي الحقيقي عاد كما عادت أشياء أخرى كثيرة. آسفة لكل ما سببته لكم من قلق، ولا يتخيل أحد انني تعمدت ذلك لكنها ظروف خاصة معروفة لدى بعضكم وخاصة حميد السائس الذي أرجو ابلاغه تحياتي الحارة، ولكل نزلاء الخان من عزيز إلى مصطفى الترك الذي أتمنى أن يكون قد عاد الى وطنه الأصلي. أتذكركم كلما نزل مطر وفاحت أرض بعطر التراب. كورجية عبد العزيز الأحوص أو حبّابة عبد الله ، باريس".

لا الصيراوي ولا حميد السائس ولا عزيز ولا مصطفى ترك فهم شيئاً مما جاء في الرسالة عدا كلمة باريس التي تطوع مصطفى الترك، ضاحكاً، في شرح مفصل عنها سمعه مرات من مسافرين عن

شوارع نظيفة لامعة تحت المطر والشمس، وجسور عجيبة، ونساء عاريات أو شبه عاريات ومحلات تضم العجائب وسيارات فاخرة وسينمات وحدائق خلابة ومدن مسحورة وطائرات عملاقة وخمور علنية وكنائس وشعور شقر وقبور ملكية لأباطرة وملوك وكهنة وغير ذلك الكثير مما يروى.

قال له الصيراوي وهو يرمش بعينيه المكسوتين برموش بلون الثلج:

. " بدل أن تكحلها، عميتها. هل تقول ان كورجية في باريس وهو الان راقصة؟".

رد عليه مصطفى ترك وهو يهم بالنهوض:

ـ "هي تقول لا أنا. ألم تسمع" مهنتي السابقة" يعني انها كانت راقصة حضرة الصيراوي وليست علوية".

***

غرق الخان في السكون والظلام والحيرة ولا صوت أو حركة غير صوت انهمار المطر كما لو ان الزمن والفصول والحوادث لا تتجدد بل تتكرر، ونسي النزلاء حتى الموت الطارئ والشبقي للبهيمة وهو يسقط من الفرس جثة نافقة تاركاً سائس الخيل في وساوسه التي لا تنقطع، وبدا ان الأقدار تختار نهايات قاسية لمصائر جميع سكان خان الصيراوي بين ميت وهارب ومطارد ومنتظر لسفر أو ميتة عاجلة أو نهاية لهذه الحكاية الطويلة.

***

صار الصيراوي يشكو، في السنوات الأخيرة، من العقاب الالهي لأن الموت نسيه أو انه مات في الحياة منذ زمن طويل، فلا أحد في البلدة، بما في ذلك هو، ولا مؤرخ البلدة الوحيد، يعرف في أي قرن

أو مكان ولد، ولا أحد يعرف من أين جاء مثل كل مخلوقات الخان التي ولدت من العدم كما بزغ يوما حميد سائس الخيل قادما من اللاشيء أو مصطفى الترك الذي خلع نفسه من جيش مهزوم أو عزيز الذي يبدو انه ولد وفي جسده الصبغ والفرشاة وصندوق الشغل أو كورجية التي جاءت من التيه الى التيه، حتى الملوك والزعماء الذين تصور الصيراوي زياراتهم مات بعضهم قتلاً أو صلباً بلا قبور أو شواهد. الشيء الوحيد الحقيقي هو الخان وكل شيء آخر دخان وريح. لكن الخان نفسه يتداعى مثل أشياء كثيرة.

هذا السكون الثقيل ليس إلا سكوناً عابراً سرعان ما تمزقه صرخة مباغتة من أطراف البلدة أو عواء ذئب أو جوقة ثعالب أو مرور نيزك محترق علامة على ان روحا قد صعد الى السماء كما يقال في مثل هذه اللحظات، وفي غمرة السكون والمطر والظلام ندت صرخة بعيدة مرقت في شوارع البلدة لتستقر في الاذان المرهقة والمنهكة في ليلة لم تعد في ذاكرة أحد، لكنها تركت علامة في

المكان: ذبح رزوقي زوجته ورماها في البئر، وفي ليلة أخرى مات حائك السجاد نصف الأعمى، وحيداً، بعد منتصف الليل وهو يحاول اشعال الضوء لكي يرى الموت المداهم، وفي الايام التالية مات العطار جواد بكي صاحب الدكان الصغير أو الشق في فتحة الحائط كما لو انه لم يعش ابداً.

كما للموت شروطه، للحياة شروطها كذلك. الأشجار تورق، والثمار تنضج والأوراق تبرعم والأمطار تنشال والنجوم تضيء والأرحام تضج بالأجنة، وكما للموت صرخاته، للحياة صرخاتها. دورة تقاطع بين الليل والنهار، الصحراء والمطر، الغياب والاياب، القتل والحب، الجفاف والخصب، الفيضان والذبول، ولا مسافة بين موت حمار الخان وبين موت ملك أو زعيم أو نزّاح.

كل شيء يمضي إلى التراب والنسيان عدا الحكاية التي يرويها كل مرة شخص ما على موقد نار أو كرسي عتيق أو سرير غادره العطر

كما تغادر الروح الجسد أو القطار سكة الحديد أو الضوء السماء، أو رجل جالس الان قرب نافذة المطر.

ليس إلا الذكرى يا حميد السائس تدق في وادي النسيان فصورها قبل أن تنفجر، لذلك نبت ذات صباح أمام مصور البلدة صبيح فيزي بصندوقه الأسود الطويل وكرسيه المسند على شجرة قرب السراي القديم المتهدم، بعد أن انتشرت كالفطر بنايات وشعارات وأقبية وسراديب وثكنات وطلب التقاط صورة وسط دهشة المصور.

تأمل حميد السائس صورته ملياً كما لو كان يحدق بصورة عقرب ونسي كل شيء.ز حفت التجاعيد على وجهه كأرض شققها الجفاف، ورأى الأخاديد تنتشر كقشور جذوع الأشجار، وأرعبته النظرة المطفأة من كل علامة للحياة كما لو ان الصورة التقطت لميت مجهول في مشرحة. خطر له تلك اللحظة الموت الصاعق

لبهيمة الخان، فشعر بالاضطراب، ورعشة باردة تزحف على جسده من الأسفل كصل صحراوي ناعم.

لم ينم تلك الليلة أبداً حتى صياح ديك الفجر الذي لا يثق حميد به لأن هذا الديك الأعور يصيح أحياناً في المساء أو منتصف الليل بعد أن اختلط عليه الزمن كما اختلطت الأيام على نزلاء خان الصيراوي. كورجية، فكّر، ترقص في ملاهي باريس منتشية بالحرية والمرح وخلو البال، وهو يجاسد بقايا عطر وسرير وفراش مع الهوام والحشرات وروائح البهائم وموت مرتقب لمخلوقات الخان التي تتعفن مع الأيام والمطر والشمس والليالي. تطل عليه صورته من الحائط كما يطل الموت، كما يطل صقر على فريسة نائمة في دغل صيفي مشمس.

كان يجب، فكّر، أن يُخلق كذئب أو حصان أو نسر أو شجرة أو محارب وليس سائس خيل قضى نصف عمره، بدل حمل السيف

أو القلم، في حمل قضبان البهائم، وبدل أن يكون دليل السفن إلى المرافئ، أو دليل الغيوم إلى البحر، أو دليل النجوم إلى الأرض، صار دليل عضو الحمار إلى فروج الخيل التي تتكرر كالانقلابات العسكرية.

كما تقلص عالم الصيراوي إلى حكايات مختلطة عن ماضيه، وتقلصت حياة مصطفى الترك في عودة أخيرة لوطن قديم، تقلص عالم حميد السائس في طقوس لا تنتج إلا البغال حتى قيل يوماً إن هذا السائس هو الأب الحقيقي لكل بغال المنطقة.

لا يزال يتذكر بقسوة كيف ان يوسف المعيدي طرده، بل أهانه، حين طلب منه يد صفية أو لطخة الظلام ويومها كاد أن يفترس كل شيء في طريقه كضبع جريح محاصر بالنار. صفية المنسية المهملة التي نساها الموت كما نساهم، صارت نائية عنه مثل سراب الصحراء. لكنه لم يمل أو يكل فصار يزور مراعي الجاموس في الربيع

والصيف وهو يراها خلف القطيع في تلك السهول المعشبة والأراضي التي لا يحدها غير القمر في الليل والشمس في النهار.

تحت ظلال الظهيرة حين يشتد الحر وتحترق الأرض ويظهر السراب وتغرق غابات النخيل البعيدة بالضوء النهاري المحرق والسكون الذي يشعل الحجر، السكون الذي يبدو كثيفاً وصلباً وثقيلا، كأن لا أحد في هذا العراء المفتوح، كانت صفية تستلقي في انتظار برودة الظل والهواء والعشب والماء والتراب متأملة الأفق الشاسع، من خلف اللثام، وهي تشم رائحة عرقها، كما تشم البهيمة رائحة المطر، سقوط الأوراق، مرور الظل، أنين الحجر تحت الشمس، صوت جريان الدم.

ظهر لها من الظل أو السراب أو من الشوك أو النباتات البرية أو من العدم السرابي، سائس الخيل نصف عار، وهو يجأر كحصان مصاب برمح، فأحست بقايا الأنثى فيها بالخطر وتحفزت

للمواجهة، لكن غريزة السائس فيه جعلته يشم رائحة أنثى على وشك الصراخ أو الموت أو القتل، تلك الرائحة التي لا ينساها ابدا هو خبير شهوات الخيل، خاصة حين لمح الخنجر يلمع في يدها تحت الشمس أو بالعكس، فذاب في ظلال الظهيرة المهلكة، وظلت هي متحفزة، وحيدة، وحدة نبتة في برية شاسعة لم يصلها أحد.

كانت ترقب ظل السائس وهو يتلاشى في الضوء والسراب ويضمحل،حين لمحت في يدها الخنجر اللاهث يتراقص عليه النور الحاد، فاستلقت مرة اخرى تحت ظلال عباءة نصبتها كخيمة من هجير الظهيرة. لا تعرف على وجه التحديد ماذا يريد منها هذا السائس، فلاشيء عندها يستحق هذا الجنون الذي أججته هذه الظهيرة المشتعلة في قلب حميد سائس خيل خان الصيراوي؟

كانت البهائم ترغي تحت النار الحامية وأشعة الشمس تحبس الهواء وتحرق الظل والعشب والعباءة، ومن قلب عزلتها الماسية، عزلة نجم أو حجر متروك في برية، التفت على جسدها، كوردة محترقة، أو كسحلية تلهث من الظمأ والشمس، وغفت قليلا، لكن رغاء البهائم وهي تنحدر نحو النهر أيقظها كما لو من منام عميق وطويل. غطس القطيع في الماء، وتلاشت الظلال، والسراب، والغبار الخانق، وكحيوان مائي غطست، عارية لأول مرة، في الماء، ولاشيء فوقها أو خلفها الا صمت الماء وسكون السهول التي على تخومها صحراء بعيدة موحشة في سبخ أبدي يتوهج ليلاً على ضوء قمر تنبح عليه كلاب بعيدة.

هذا هو الشيء الوحيد الذي بزغ في ذاكرة صفية من عالمها القديم المنسي وهو تطفو فوق الماء في عزلة تلك الظهيرة الحادة كنصل الخنجر، والضاجة بسكون أرض ساخنة ونحيلة كخصر غزال.

كانت تمسك نهديها الصغيرين البريين وهي تحاول أن تتعرف على تفاصيل جسدها المنسية ودهشت لبقع سوداء تتقشر منه وتطفو فوق الماء. كانت مثل أفعى تنزع جلدها شيئاً فشيئاً، وتتفتح في وهج عزلة الظهيرة كبذرة تقوم من موت طويل. كانت تسمع من يوسف ان البذور تموت في موسم وتحيا في مواسم أخرى مهما تعاقب الزمن. لكن طبول ذلك اليوم المؤجل عادت تدق في رأسها وحشية حادة وعنيفة. لا تعرف على وجه الدقة أي جزء من جسدها سيقتطع، لكنها رغبت في أن تغوص عميقا في الماء حتى صار سطحه ساكنا كما لو أن احدا لا وجود له في هذا العالم ابد، وشعرت بوحدة صافية وصور غريبة نائية ومقصية تتحرك في مخيلة تنهض من الرماد.

حين رفعت رأسها صعقت من وجود جثة طافية تقترب منها ولمحت برعب ان الجثة مربوطة اليدين بحبل الى الخلف كما حدث

ليوسف مرات من قبل. هذا المنظر قطع الاسترسال الطبيعي للصور المتدفقة تحت الماء وعادت صفية الى الطلسم واللغز بلا تاريخ عدا ذلك الغسق المسائي المتوهج بالألوان الحارة والمشعة. زمن الجثث الطافية فوق النهر أقدم من الاحتلال، فكّر الرجل الجالس الآن أمام نافذة المطر.

***

حين عاد سائس الخيل الى الخان، وجد جنازة يُصلى عليها قبل أن تحمل، كجنازة منشي شالوم، والصيراوي يقف بعيداً ووحيداً وأعزل وهو يشرق ببكاء متشنج. كانت تلك جنازة عزيز صباغ الأحذية. على عجل تم اخراج شهادة ولادة ووفاة لأن الميت لم يكن يحمل أوراقاً رسمية أو اية وثيقة أخرى والشيء الوحيد الذي

تركه خلفه هو صندوق الشغل وصرة نقود امانة عند الصيراوي كمصاريف دفن.

تلك الليلة لم ينم مصطفى الترك حتى صياح ديك الخان الأعور. كم تمنى لو انه يستطيع بما تبقى من قوة أن يرحل الى الاناضول قبل أن يكبس عليه الموت في هذا الخان الذي يبزغ النزلاء فيه من السراب ويمضون الى السراب لا أثر ولا ذكرى. كان يقول ردا على سؤال متكرر:

. " لماذا تعود؟".

يقول مصطفى الترك:

. " أريد أن أتخلص من الأحلام التي تأكل قلبي. جسدي يتألم من الغربة كمن يتألم من مرض".

هو الشعور نفسه، فكر الرجل الجالس مقابل نافذة المطر، الآن، الذي يعانيه هو، كما عاناه من قبل ميلان كونديرا،

وإيزابيل الليندي، وعوليس، وكافافي وغيرهم. قال يحدث نفسه في وحدته قرب النافذة وهو يراقب مشاهد الغزو، إن هذا الاحتلال قديم، وانه في الواقع حدث قبل هذا اليوم بوقت طويل منذ أن تم تحويل الانسان إلى حشرة. المخلوقات المحطمة، المهشمة، مخلوقات الخان وخارجه، المفرغة من آدميتها، لا يمكن أن تنتج حياة سوية أبداً، ولا أن تخرج لصد غزو حتى لو كان غزو جراد.

***

تلك الليلة تحدثت صفية ليوسف المذهول عن صحراء موحشة وحجر ساخن وكثبان متحركة وبدو ملثمين وجثة طافية. من جانبه رأى يوسف وجه صفية وقد عاد صافياً كما عثر عليها ولم تعد تلك البقع السود تكسو وجهها.

شعر بمشاعر حبيسة تتفجر في أعماقه كمياه الينابيع التي شاهدها يوما في الجبال في موسم جفاف قديم، تذكر موت ابنته الوحيدة بقرن فحل مستشار ثم رحيل زوجته بعد ذلك بوقت قصير، حرك جمر الموقد وطلب ماءً وتركه ينسكب على صدره ولم يعد منذ تلك اللحظة يرى الميت لا في الحلم ولا في الخيال ولم يعد شبحه يظهر في الفجر.

شعر يوسف انه حر اليوم أكثر من أي وقت آخر كما ان صفية حرة كزهرة برية تتفتح في عتمة دافئة تحت جدار متهالك. سألته بصوت خافت:

." وحفل الختان؟".

قالت أمه وهي تحرك الجمر حتى ظهر الرماد:

." تلك رغبة السيد الصيراوي وأهالي البلدة يا صفية".

بصوت خفيض كأنها تكلم نفسها قالت صفية قبل أن تنهض مغادرة الغرفة وربما لم يسمعها أحد:

."ستحل اللعنة".

***

عندما صارت البلدة تكبر كل يوم، فإن طرق الوصول الى الخان تعددت: لم يعد الخان كما في السابق مكان الاقامة الوحيد في البلدة للغرباء والعابرين والقرويين، بعد أن تأسس أول فندق حمل اسم (**فندق السعادة**)، لكن الخان ظل المكان الوحيد للقادمين من الريف على ظهور الخيل أو الحمير أو المشردين أو المعوزين، أو الراغبين في الحصول على بغل.

يمكن الوصول الى الخان، مثلا، من دروب متعددة، لكن أهمها هو درب السوق المسقوف مكان اجتماع البلدة الكبير ومكان التسلية والتسوق والحلاقة وشراء الحاجات لأنه يحتوي على كل ما يحتاجه المرء من دكاكين لحوم وخياطة وأحذية وطعام وخضروات وبعض المقاهي خاصة مقهى الأرملي التي تعود يوسف الجلوس فيه قبل عبور النهر الى شبه جزيرة ربيضة على الضفة الأخرى من النهر بداية الربيع، قبل أن تتحول تلك البقعة المزهرة في السنوات الأخيرة الى منتجع لكبار مسؤولي الحزب الحاكم، وأزيلت كل الأشجار والمراعي والحكايات، ولم يعد القمر يشرق على غابات فاتنة بل على شقق حجرية ترى من ضفة النهر الأخرى غارقة في السر والضوء والعزلة والأبراج.

في ربيضة كما في البلدة، ولد جيل جديد من العجول والأطفال والاحلام، كما مات فيها على مدار السنوات جيل آخر. أما أشهر حلاق في السوق المسقوف فهو حسين الدهش الذي مات على

اثر نزيف في الفم بعد قلع سن وسيرث هذه المهنة ولده علي حسين الدهش، مدرس التاريخ، الذي حلق رؤوس غالبية سكان البلدة حتى تخصص في حلاقة النساء في منازلهن، وسيهرب يوما أواخر سبعينيات القرن الماضي بعد حملة سياسية بوليسية شرسة الى بغداد مع الرجل الجالس الآن قرب النافذة الماطرة والثلج المتوج هامات الجبال البعيدة التي ترى عبر النافذة والخليج المعتم.

علي الدهش أول من نبه في جلسة سمر في محلة الصيراوي على مبعدة أمتار من الخان ثلة أصدقاء كانوا يومها مشغولين بأحلام لا تقبل بغير حليب النجوم، إلى ان كورجية تثير ريبته، وهو أمر يشاركه فيه كثيرون من المحلة، لكن علي ذويب مدرس اللغة العربية والدين والذي عاش صحوها سكراً كما يقال، قال له حاسماً الأمر:

."لم يعد لدينا غير فرج كورجية ؟".

رد عليه فالح حمد رسام البلدة وربيب السجون العسكرية وغيرها بسبب الحرب والسياسة مثل كل الأصدقاء المحلقين على مائدة شراب:

." علي يشم رائحة الفرج ولو كان في الصين".

أمـــــا مالـــــك عبـــــد الله فعلّـــــق ضـــــاحكاً:

." انتقلنا من تغيير العالم إلى تغيير الخان".

قال علي الدهش ضاحكاً:

. " أحسن من حديث السياسة وزجاجة بيرة في الشرج".

كان ضوء القمر يغمر المائدة ورائحة شذى الأشجار تملأ الليل، لكنها رائحة تخفي خلف شذاها المسكر أكثر من مجهول. خلف هذا السكون يربض ثعبان ضخم سليتهم أكثر من جيل حتى قدوم البرابرة الذين لم يكونوا حلاً.

***

مقبرة الأطفال تجاور البساتين، وخلفهما النهر، وخلف النهر جزيرة ربيضة، أبعد من ربيضة شمس تشرق من الأفق الشرقي، صاعدة من بين غابات النخيل. المقبرة مكان للحزن مغلق على البهجة . قبل أن تزال فيما بعد كربيضة . لكن البساتين فضاءات مفتوحة على الأفق كالنهر، كربيضة. مبنى السراي الحكومي القاتم لا يشبهه في قتامته وكآبته ونفوره سوى المقبرة. وكما للسراي حكايات، والمقبرة أيضا، ومنظمة الحزب الحاكم، كذلك للنهر وهو الأعرق من كل معالم البلدة وهو يجري قبلها كما سيجري بعدها الى الأبد. نهر دجلة هو أحد شخوص هذه الحكاية والذاكرة العميقة لسكان ضفاف الأنهار.

تأسست البلدة على ضفة النهر وليس العكس. حين تضيق الصدور كان الناس يذهبون إلى النهر، لكن حين يضيق النهر كان

يجتاح البلدة وهو أمر حدث أكثر من مرة في بدايات القرن الماضي. يوم كان النهر يفيض فإنه يفيض بالماء لا بالجثث كما حصل في الفترات الأخيرة من القرن، ومن يدري، يقول رويّح الأعمى، ربما سيظل ينقل الجثث لسنوات طويلة قادمة.

***

صار الصيراوي يجلس على الكرسي نفسه، مع اختلاف الضوء والظل، ويحدق في الفراغ، حتى انه صار ينسى اسم الخان، وينادي حميد السائس بالحمار وبالعكس، وفي لحظة الهام نادرة قد لا تتكرر تذكر مرور الموكب الرئاسي في ذلك الصباح الربيعي فصاح:

." خال البغل حصان".

جفل مصطفى الترك وهو الوحيد في العالم الذي فهم المعنى المهلك خلف هذه الجملة القاتلة التي تقال عن الرئيس وعن الخال. تحسس رقبته وغادر المكان. مصطفى الترك نفسه صار ينسى مكان الخان حين يأتي من مقاهي السوق، فيسأل عن حميد السائس، حتى نقل إلى غرفة صغيرة في سوق القصابين بعد أن صار أكثر وقاحة وشراسة وعصبية. هناك قطع كل صلة له بنزلاء الخان، وربما بالعالم وصار يُرى متجولاً بعد منتصف الليل في الشوارع وحين يسأل عن سبب هذه النزهات الليلية كان يقول كالمباغت:

." ليل؟ كنت أظنه النهار".

***

مقبرة الأطفال جرح جسدي عميق في قلب البلدة. في الليل تنتشر أساطير عن خروج الأطفال الموتى للضحك واللعب، أما

بساتين الضفاف ومنها بستان عبد الله الفاضل الذي سيهرب إلى إيران مع الأسرة تاركاً كل شيء للثعالب والليل والعسس بعد ان اختفى كل اثر لأولاده فاضل وفرات في حملة أمنية شرسة ضد الشيوعيين وأنصارهم، تلك البساتين المزهرة بالفاكهة والضوء والسر، فتُخفف من كآبة المقبرة التي أزيلت فيما بعد حين صار الموت المتجول الوحيد في بلدة الصيراوي وما جاورها وبعد ان أُطفئت فوانيس الليل وخرست ثعالب البساتين المجاورة.

***

في شارع جهار مردام عام 1988في مدينة قُم الإيرانية، في منعطف طريق، سيلتقي الرجل الجالس قرب نافذة المطر، الآن، يراقب مشاهد الحرب والغزو من منفاه الثلجي، مع عبد الله الفاضل الذي كان يمشي متمهلاً ونائياً كنسر جريح. مرّا من أمام مقهى

فارس جبار المرهج المطرود هو الآخر بسبب دم فارسي عثر عليه في دمه من عدة أجيال، وصادفا في المقهى خضير عباس المرهج المعلم الخمسيني لجيل والذي وجد نفسه في صباح كريه مقذوفاً على الحدود مع عوائل كثيرة في ثياب النوم على طريق كرمنشاه في هجرة حزينة نحو مدن التيه ليعمل من بعد بائع خضار في زقاق ضيق في قم مع بقية أفراد العائلة.

كوعل شره للصداقة والدفء والشعر وحنان العائلة والشراب، نزل حسين عبد المهدي الشيوعي إلى هذا الزقاق قادماً من خيبة الجبل بعد أن اكتشف ان الثورة في الكتب ليست هي نفسها في غابات السرو والصنوبر، ليُقتل بعد ذلك في انتفاضة عارمة بعد حرب الخليج الثانية، الموت الذي طالما حلم به وطارده ونفذه تاركاً الرفاق يمارسون طقوسهم التاريخية المدارية في التأبين واحتفالات الموت وخطب الغرف المغلقة النبيذ والبحث عن ضحايا أبرياء للتنفيس والتنكيل بهم في نوع غريب من تماهي الضحية بجلادها.

فارس المرهج لا يمل من سؤال الرجل الجالس الآن قرب نافذة المطر . **تلك الايام في مدينة قُم قبل أن يدخل في هجرة أخرى .** عن ارض له تركت قبل أن يبنيها قرب منزل الرسام فالح حمد، تلك الأرض التي أوشكت ان تفقد فالح صوابه كلما مر من أمامها في الفجر في الطريق إلى الثكنة.

كان يرى نارا تقدح من شجرة النخل الوحيدة في تلك الأرض الخلاء. لم يصدقه أحد لكن آثار النار كانت واضحة على الجذع المحروق. ظل فالح يروي حكاية النار القادحة من جذع النخلة بكتمان كمن يحكي عن سر مخيف أو عن علامة.

فاضل وفرات عبد الله الفاضل(قبل الاختفاء والظهور في ايران بعد هجرة العائلة) سينضمان إلى ثلة علي الدهش. علي ذويب

(سيقضي أوقاتا سعيدة في مبنى المخابرات) فالح حمد (السجن والحرب) والرجل الجالس الآن قرب نافذة المطر(السجن، الحرب، المنفى) نضال جاسم العذاري(السجن) مالك (الأسر) مانع مهدي(سيطرد هو الآخر مع الأسرة إلى إيران) بشير الشراوي (في منفاه الدنماركي) وغيرهم شكلوا على مدى عقود بؤرة سياسية مضادة في البلدة رغم كل الويلات والإغراءات ودفعوا ثمناً وهم في عمر الزهور وكثيرون منهم أخذوا طريقهم إلى التيه أو المنفى أو السجون أو الأسر أو المرض أو الموت أو الحرب.

ذلك الجيل الذي ولد منتصف القرن الماضي داهمته السجون أو المنافي أو الحروب أو شيخوخة مبكرة أو الكوابيس وهو في الطريق إلى الحياة دون أن يمر بمرحلة الطفولة اختصاراً للوقت. بعض أفراد الثلة ظل ينزف بلا موت ولا حياة في كل الأزمنة المتعاقبة. هناك نار تحرق ولا تنطفئ. هذا هو العذاب.

سالم حمزة الكرعاوي، أو الروائي المجهَض، ظل على مسافة من الثلة دون أن يكون بعيداً، لكنه عاش وحيداً في دروب بلدة محرومة من الفرح والضحك والتخيل، يدخل السوق ويخرج بقامة منحنية وحزن دفين، لا هو قادر على الشكوى ولا على الصمت، ينوح بصمت مثل وجع الحمام العراقي على منارات الأضرحة أو أعمدة الكهرباء أو قرب مصباح ليلي كورّاق عباسي خارج من حكاية قديمة، لكن صورة ذاك الجيل ليست وردية، هناك، مثلا، مهدي صَفِيّا كما يلقّب نفسه الذي عاش منسجماً مع النظام والحزب منذ البداية حتى النهاية يوم كان المثقفون يُقتلون أو يُسجنون أو يهربون إلى المنافي أو أقفاص الأسر. هل سيبدل جلده بعد سقوط النظام ويغرق في تصوف ديني تنكري وقائي ويكتب حكايات عن عالم فردوسي مبني على السرديات الدينية المتخيلة مجاراة للموجة؟

خليل الشيوعي هو الوجه الآخر لهذا النموذج أو القناع: انتقل من شيوعي إلى مقاول مع الحزب الحاكم، وبعد الاحتلال صار مسؤولاً محلياً للحزب الشيوعي بقوة نفوذ الأُسرة، هو المولع بهوس مرضي بالغلمان ومحاكم المقاهى، في حين كان رفاقه يقاتلون في الجبال أو يُقتلون في السجون أو يتساقطون في المنافي، مما يعني ان السلالة الحزبية أهم من نظريات الصراع الطبقي.

***

يواجه الخان زحف البلدة، لكنه راسخ مثل ظلال الحزن، حتى نتأت من خاصرته يوما مقهى، ففقد سكونه القديم، لكنه ظل يجذب التائهين والضائعين والباحثين عن النوم أو الغرباء الهاربين من هجير الظهيرة. ظل الصيراوي وحده يروي حكايات لليل. أما حميد

السائس فصار ينتظر مواسم العزاء في عاشوراء على نار ويضرب السلاسل على ظهره العاري الممزق بقوة وهو يصرخ من أعماقه الجريحة. علّق علي الدهش على ذلك مرة قائلا بسخرية:
." حميد سيقتل نفسه من أجل كورجية".

علي ابراهيم المصري الذي عمل حداداً في البلدة رفض النوم في الخان حين عرض عليه الرجل الجالس الان قرب نافذة المطر، وفضل الاقامة، يقول ذلك ضاحكا، في "فندق السعادة".

علي المصري، اليساري الأسمر والصعيدي المحروق بكل نيران الأرض، قال وهو ينزل مطار بغداد لأول مرة أواخر السبعينيات وهو يرى عبر شاشة التلفاز خال الرئيس يلقي محاضرة في التاريخ:
. **"هذا بينوشيت عراقي"** ويقصد الجنرال التشيلي.

غادر علي إلى بيروت بعد الغزو الاسرائيلي وعمل في المقاومة وانقطعت أخباره بعد أن تعرف على ثلة المهجورين والمطرودين والمحرومين من السعادة بعد أن اتهمه بعضهم بمحاولة تخريب التحالف الوطني بين الحزب الحاكم والحزب الشيوعي. كان يقول ساخراً:

." أنا الوحيد المقيم في السعادة".

قبل أن يسافر، وكانت غيوم رمادية تنذر بصواعق وأمطار ورعود كثيرة، قال علي المصري للرجل والمودع الوحيد الجالس الآن قرب نافذة المطر:

." ستكون أنت، وحيداً، على درب تيه آخر، منفى، أو سجن، أو موت، يوماً. خذ حذرك. قد تحتاجني وهذا هو اسمي الحركي "حورس" لا تستعمله إلا عند خطر وشيك وحقيقي".

***

بلا عكاز، يشم الطريق والبشر والروائح والحفر والاعمدة، كان رويّح الأعمى، يقيس المسافات، وحين سأله مرة علي المصري قبل أن يسافر بأيام هل يؤلمك هذا الليل، أجاب رويّح وهي يحدق نحو فراغ ضاج فوق هامات الأشجار:

. (**شبه الظل هذا بطيء ولا يسبب أي ألم. إنه ينزلق فوق سفح ناعم، ويبدو كالأزل**).

قال ذلك المقطع لبورخيس ومضى يشم الطريق.

يوما قيل إن رويّح سقط في حفرة لكنه حين سئُل عن هذه الحادثة النادرة في حياته أجاب:

."الذي سقط هو الظل".

في ليلة ماطرة والريح تصفر في الأبواب كان رويّح يردد:

. " المطر يتسكع مثل ضبع أعمى".

حذره الرجل الجالس، الآن، خلف النافذة، من مخاطر هذه اللغة المشفرة التي قد تفسر على غير وجه وتعتبر شتيمة سياسية ويجد نفسه في ضيافة فهد أو تمساح أو كلاب شرسة، فرد عليه وهو يرفع عينيه بعيداً:

." روح.. روح.. مستقبل الجّرة قحف".

قال مالك عبد الله المار في الطريق وهو يسمع كلام رويّح قبل أن يقع في الأسر في ديزفول وينجو من مطاردة طويلة من أمن النظام":

. " تجاوزنا هذا مستقبل القحف يا رويّح".

بعد رحيل العبّارة في تموز عام **1973** أُفتُتح الجسر الذي لا يربط البلدة بالعاصمة فحسب، بل يربط شرق البلاد وغربها مع عدة جسور في أماكن بعيدة. لكن الجسر ليس العبّارة: العبارة ذاكرة

والجسر سطح. من فوق هذا الجسر، تلوح الصور، يعبر الجيش الأمريكي في الطريق الى العاصمة في جو عاصف ومغبر وقاتم.

***

يقول شريط الأخبار المتواصل أمام الرجل الجالس قرب نافذة المطر، الآن:"القوات الأمريكية عبرت جسر بلدة الصيراوي ودخلت العاصمة من مداخل أخرى، وتقف الآن على جسر الجمهورية، وفي مشاهد أخرى حرائق وجنود القصر الرئاسي يفرون بالثياب الداخلية من حدائق القصر.

***

ضيوف جدد وصلوا إلى خان الصيراوي بعد أن خلا إلا من سائس الخيل والصيراوي وحمار الخان وعصافيره وروائح التبن والروث

وعرق البهائم المغادرة وسنونوات تغيب أواخر الخريف وتعود في بدايات الربيع.

النزلاء الجدد هم فريق سيرك قدم من العاصمة في زمن حرب الخيج الاولى، وأبهر الجميع، بما في ذلك سكان المحلة، هو انهم حملوا معهم قرودا لألعاب السيرك الذي أقيم منتصف النهار في ساحة عامة. كان رويّح الأعمى يقف بين الجمهور المحتشد حين سأله سالم حمزة الكرعاوي مازحاً:

. " هذا سيرك قرود يا رويّح وأنت ضرير".

رد عليه رويّح بانزعاج:

. " هل نحتاج إلى قرود جديدة؟ أنا أبصر ما لا تبصرون".

انصرف وهو يمشي بصورة مائلة ماداً أصابعه كأنه يشم بها الطريق مرتلاً أبيات شعر للصوفي عبد الكريم الجيلي:

ـ " شربنا فبحنا فاستبيحت دماؤنا/ أيقتل بواح بسر الذي يهوي/ وما السر في الأحرار إلا وديعة/ ولكن إذا راق المدام فمن يقوى؟".

قاطعه في الطريق نضال جاسم العذاري الخارج تواً من السجن لفراره من الحرب:

. "تشتهي الموت، يا رويّح، لكنك لن تجده. كيف حال الطريق؟".

أجاب رويّح بنظرته المتعالية بقول البسطامي:

." غب عن الطريق، تصل إليه".

أضاف قولاً لابن عربي:

. "لو كانت الطرق واضحة، فما حاجتنا إلى الحكمة؟".

***

جيل كامل تهاوى في المصيدة بين القتل والسجن والحرب والأسر والنفي والهروب والموت والمرض والنزيف قبل مجيء البرابرة. الرجل الجالس، الآن، قرب نافذة المطر، عبر الجبال الإيرانية ـ الباكستانية، بعد عبور الحدود العراقية من قبل، في ليلة باردة عبر الجبال بقميص الصيف في **1989/1/17** من قرية تافتان الباكستانية وهو يصغي لنباح كلاب بعيد. هل هناك ليل عراقي أو حكاية بلا نباح كلب أو بلا لون الطين وهو اللون الطاغي على البيوت والوجوه والذاكرة؟

***

عبر الكوجر أو الأسد الأمريكي، يقول شريط الأخبار المتحرك، قرية صُفية قادما من بابل الزانية حاملة العقاب الإلهي بتعدد الالسن والتشوش حسب الوصف التوراتي ومن مداخل أخرى ومر فوق الجسر وهو يزحف الآن فوق الطرق المؤدية إلى

العاصمة تحت عاصفة ترابية مصفرة بحيث لم تعد الرؤية ممكنة على مبعدة أمتار، في حين كان المطر عبر النافذة قد كف عن الهطول لكن الوفر الثلجي واصل الانهمار فاختفت الجبال والأشجار وصار الخليج بلون الرماد، أما الطريق نحو العاصمة فقد صار، يقول شريط الأخبار، شاحبا كصحراء تتشكل، تواً.

***

طبول وحشية حادة تمزق سكون البرية وتصل حواشي بلدة الصيراوي بايقاع متوازن كطبل بدائي ينبثق من أعماق غابة بدائية. كانت صفية تجلس، يوم الختان، في كوخ العجول ذلك الصباح وهي تحتضن بقايا المرآة وقد سرحوا لها شعرها الطويل كحبال القنب حتى تكوم في حضنها في تلك العزلة الموحشة.

طبل عنيف يرج الأرض مع تراتيل المقرئ الأعمى وأصوات دفوف مدوية. مرَّ في خاطرها تلك اللحظات غسق مسائي محمر وصحراء ورمل ونبعت من مكان ما صور وجوه تتكون كما لو تتجمع تلك اللحظة في بؤرة المرآة. شعرت برائحة جسدها يحترق ويخرج منه مخلوق آخر كما سمعت في اللحظة نفسها خطى تقترب منها، ودوي الطبول يتصاعد مع ضجيج أصوات مهللة مبتهجة.

لا تدري اذا كانت صرخة عميقة حادة مدوية قد خرجت منها أم لا، لكن الرجل الجالس الآن قرب نافذة الثلج المنهمر يتابع شريط الأخبار والصور، يتذكر ان صرخة وحشية قد اندلعت ذلك الصباح، وهو نفسه تذكر تلك الصرخة حين توقف يوما أمام **لوحة(الصرخة) للرسام النرويجي ادوارد مونش:** كائن بشري داهمه رعب مفاجئ في غسق مسائي عكر يطلق صرخة ضائعة على ضفة بحيرة سوداء مضطربة كهاوية موحشة وتحت سماء يتشابك فيها اللون الاحمر والأصفر والأزرق في تداخل مخيف.

حين وُضعت صفية بين يدي امرأة عجوز وقد وثقوا يديها وباعدوا ساقيها على دوي طبول آخذة في التصاعد، لمعت الشفرة تحت نور الصباح المعفر بالغبار والنظرات المختلسة والصلوات والتراتيل وأمواج الماء التي خيل لصفية أنها تغمرها الآن في غبطة طارئة وتتلاشى كدخان.

***

الرجل الجالس خلف نافذة المطر يرى، الآن، الدبابتين الأمريكيتين تستقران فوق جسر الجمهورية الذي بدا أطول مما هو عليه في الواقع تحت سماء بلون الرماد مثل لون الخليج أو لون رماد المواقد القديمة.

حين أطلقت دبابة قذيفة نحو فندق فلسطين مرديان من فوق الجسر، على دوي طبول قادمة من حفل قديم وأزمنة متلاشية أو من برية موغلة في القدم، أحس برعشة البطريق وصرخته وهو يعيش العاصفة مرتين: مرة تزحف تحت الجلد، في الدم، قبل الهبوب، ومرة أخرى حين تهب، وانتبه إلى أن زمناً طويلاً مرَّ وهو على هذه الهيئة.

أغلق التلفاز ونافذة المطر والثلج وهو يقول:

" يوم طويل وممل!".

*

1. كُتبت هذه الرواية:

عام 2005 ونُشرت 2006

أول رواية عن جذور الاحتلال.

2. بعض الوقائع التاريخية كخلفية للتخيل عن بغداد وهارون الرشيد من كتاب" هارون الرشيد" للدكتور عبد الجبار الجومرد.

*

رواية صرخة البطريق هي تعزيز وتجسيد روائي لهذه الرسالة التي نُشرت قبل الحرب بساعات وكانت نبوءة دقيقة بالقادم.

رسالة منتصف الليل:

قبل الحرب بساعات" أكثر من دكتاتور في الطريق"

الحوار المتمدن – العدد: 430 – 2003 / 3 / 20

هذه الرسالة ليست صلاة،

وليست أملا،

ولا هي رسالة خوف،

إنها صرخة البطريق قبل العاصفة.

إنها نشيج من فوق الكارثة على موتى في الطريق الآن إلى الأنقاض والصمت الأبدي.

صمت رأيته في أماكن كثيرة تتركه الحرب.

صمت رأيته في مقابر مضيق برسلين وديانا وعلى سفوح جبل زوزك وقنديل وفي جبل السلام، وفي وديان جومان ومهران وسهول كيلان غرب وصحارى البصرة وفي أدغال ومستنقعات الأهواز، وفي عيون الأمهات المنتظرات على الطرق الخارجية الجالسات أمام نقاط السيطرة العسكرية كبقع سوداء غامضة.

كطيور الظلام.

صمت رايته في المستشفيات العسكرية أو في نقالات الجرحى.

صمت رايته في كل الأماكن التي اغتالها الدكتاتور.

ليس صمتا تماما، إنه نحيب سري.

إنني أتوجه بهذا النشيج في هذه الساعات إلى الذين يجلسون الآن في غرفهم أو في خنادقهم على ضوء فانوس أو شمعة أو أمل دفين.

إلى أولئك السجناء في العتمة الباردة في انتظار قنبلة طائشة أو مفرزة انتقام أو أي أمل أو حركة في القفل المحكم أو الباب المغلق على النهار والشمس والريح والقمر والأمل.

أتوجه إلى أصدقائي في كل مكان، في المنافي البعيدة، أو في المنافي القريبة، داخل وخارج الوطن.

الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم.

إلى المنتصرين الأبرياء،

والمهزومين الأبرياء.

ليس عندي في هذه الساعات غير ذاك النشيد الآسيوي الذي يغني للفراشات الواقفة على صدور المنتصرين النائمين، وعلى صدور المهزومين الموتى.

إنها أغنية الفراشات في زمن الحرب.

لا تعرف الفراشات عنصرية العرق والدم والأمة.

لا تعرف غير المحبة حتى داخل بركة دم.

أو حقل ألغام.

وكثيرا ما رأيت الفراشات تطير وتلعب في حقول الألغام أو بين الجنود القتلى وسط العشب الربيعي: (حدث ذلك في معارك الطاهري جسر حالوب، وفي معارك شرقي البصرة 82، وفي معارك جبل زوزك 74، وفي غيرها).

كما رأيت القمر يبزغ من خلال الأسلاك الشائكة.

ليس إلا الذين عرفوا الحرب عن قرب يعرفون معنى بزوغ قمر من فوق الأسلاك الشائكة.

إنها إطلالة الحياة على الموت،

ورائحة الأمل على رائحة الجثث،

ونور الأبدية على منطق القنبلة.

ومعنى صخب العصافير في بركة ماء تحت القصف.

أو انبثاق الزهور في خوذ الجنود القتلى القدامى المرميين في العراء في

الأرض الحرام من معارك سابقة، أو بين حفر القنابل.

ليس إلا نحن من يعرف ماذا يعني النوم الليلي الشتوي فوق مصاطب محطات السفر أو تحت أبواب المحلات المغلقة آخر الليل. أو البحث عن مسجد ليلي مفتوح للنوم قبل الالتحاق في الصباح بالخطوط الأمامية(أتذكر جيدا سنة 1982حين طردتني مفرزة حزبية من جامع بلدة "الدير" بعد منتصف الليل لأنه ممنوع النوم في الجوامع بالنسبة للجنود، فنمت على منصة ـ بسطة ـ محل مغلق حتى الفجر، حين أيقظتني عجوز تبيع القيمر، وألقت عباءتها فوقي وهي تقول: عساها بخت من سوّاها ، أي الحرب).

إلى اليوم أشم رائحة تلك العباءة.

ليست عباءة فحسب، إنها رسالة حب، وحضارة، وجمال.

ولو نمت في كل شوارع العالم اليوم، فلن ترمي امرأة أو رجل معطفا أو عباءة فوقك.

الحضارة روح وليست تكنولوجيا.

ليس غيرنا من يعرف ماذا يعني إعداد الحقيبة قبل التوجه للحرب.

ليس غيرنا من يعرف معنى برد المحطات.

وصراخ الأطفال في لحظات الوداع.

ولون النوافذ الأزرق.

وبصيص الشمعة وهي تخبو في الملجأ أو الغرفة.

ولا دوي القنبلة.

ولا اللون الكريه لقناع الغازات ورائحته المنفرة في الصيف الحار

(رائحة تشبه رائحة حذاء يحترق).

وصمت الطرق الخارجية، حين يخترق الباص أو القطار السهول.

ليس غيرنا من يعرف حزن المواقد البعيدة عبر نافذة قطار

أو أغنية تنبثق من الذاكرة أو من السهول الليلية النحيلة عن القهوة

والقطار والعشق وفز القطا وبرد الفجر.

ولا جمال ضفيرة تحنّت بليلة مهر.

ولا حزن الأغاني:

(يا طيور الطايرة روحي الهلي)

ولا نحيب:

(أريد أبجي على صدرك مشتهي النوح)

ليس غيرنا، نحن حطب الحروب والمنافي في كل زمان، في كل مكان، أبناء الفقراء، من يعرف ماذا تعني نافذة مضاءة داخل الليل المعتم من خلف نافذة قطار مندفع نحو الحرب،

ولا لون الوسادة،

أو حمام ساخن،

أو معنى حساء على ضوء ناعم مسالم.

ولا معنى بكاء طفل آخر الليل.

إنه نشيد الحياة في مواجهة الموت.

فالأطفال لا يبكون في الخطوط الأمامية

والهجوم؟

والهجوم المقابل؟

إنها ليست مجرد ألفاظ في القاموس العسكري.

ولا كلمات عابرة في نشرة أخبار.

إنها الموت والرائحة والنسيان.

إنها قيامة الوحش.

لست واعظا

ولا ناصحا.

لو كنت كذلك، فمن يسمع صلاة أو أغنية أو موعظة جبل من نبي أو شريد أو فقير في هذه الساعات التي ينهض فيها الوحش البشري من رقاده بعد أن كنا على وشك الاحتفال بنهاية عصر الغابة، وموت الغوريلا؟

لكن الغوريلا خرجت وهي تستحم بالنار الآن على مشارف قرن جديد كان يقال له قبل سنوات انه: قرن الإنسان.

وليس الوقت وقت عتاب أو ملامة أو ندم أو حسرة أو أسف.

ليس لأن الزمن قد مات أو توقف بل لأن ذلك لم يكن مجديا في أي يوم مضى ولا في أي يوم قادم.

وفات الأوان كي نقول أيضا أن هذه الحرب ليست حرب الدكتاتور وحده مع خصومه فحسب، بل هي حرب الأخطاء.

أخطاؤنا نحن التي مجدناها ورعيناها وفلسفناها كل هذه القرون والحقب والسنوات وحتى اليوم.

في هذه الساعات العصيبة يجب علينا بل من واجبنا ككتاب وشعراء وفنانين أن نبرهن لأنفسنا ولشعبنا أننا قادرون على الرؤية في الظلام، وتلمس طريق النور في هذا الديجور، وسماع النشيج المرْ في فوضى صخب الطائرات والقنابل، وعلى شم رائحة الأمل بين الجثث والأنقاض.

الذين قالوا وكتبوا وفرحوا لهذه الحرب أثبتوا لنا للمرة الأخيرة أن شهوة القتل والحرب والدمار ليست نزعة خاصة بالدكتاتور.

الذين كتبوا ومازالوا يكتبون بحماسة يومية لهذه الحرب كانوا البرهان الواضح على أن الخلل في الوجدان العراقي أعمق بكثير

من أن ترقعه أو تصلحه أو ترممه جيوش أو حكومة جديدة أو ديمقراطية بنادق أو غازات.

ليس الدكتاتور في حالة عري هذه الأيام وفي مواجهة مصيره، بل هذا الوعي الشقي الوحشي المحتفل بالجثة والنار والموت والرصاص.
هذا الاحتفال الوحشي هو علامة خطر مبكرة على أننا سنجد أنفسنا يوما أمام سلطة الوحش ذاتها
والكراهية ذاتها،
ونفس نزعة الانتقام.

مع أننا لسنا من يصغي لعلامات الإنذار المبكرة حتى بعد فوات الأوان كما دلت كل التجارب السابقة وكما ستدل كل التجارب اللاحقة.
لا تفصلنا الآن عن كارثة قادمة،

ومجزرة وشيكة،

ومذبحة كبرى،

غير ساعات.

في هذه الفسحة الباقية من الأمل، هناك فرصة لنا وحدنا للتأمل، حتى في قلب هذه العتمة والليل واليأس.

من واجبنا ككتاب أن نقرع طبول الأمل.

أن ننذر،

أن نعلن للعالم،

إن بلدنا على وشك الزوال.

إن الوطن ينحدر نحو الهاوية.

الذين يقودونه إلى الصلب العلني هم تجمع وحوش تتناقض مصالحهم، حتى صار الوطن كغزال ممزق بين أنياب ضباع مفترسة وبين مخالب طيور وحشية.

هذه سلطة النمل.

وشعارها العلني:

(نجعل الدماء تسيل أنهارا في سبيل العراق)

والمقصود الكرسي.

أو:

(من يستلم العراق، يستلمه أرضا بلا شعب)

الغوريلا تركض في شوارع بغداد لتأكل أهلنا

الغوريلا تستحم بالدم.

هل من فسحة للصلاة؟

هل من فتحة للأمل؟

هل من فرصة للتأمل؟

الأمل الوحيد الباقي هو أن ندفن موتانا وننهض.

الأمل الوحيد الباقي هو أن ندفن الوحشي فينا،

ألا نسمح مرة أخرى، لمجرمين جدد يحكموننا باسم مشنقة أخرى

أو كذبة وردية أو لعبة سياسية مموهة.

أن نزرع الأمل والحب في قلوب الناجين من المحرقة.

ليس المطلوب موت الدكتاتور فحسب، بل العقل الذي أنتجه الحاضنة،

والثقافة، والمناخ، والذهنية.

كل الدلائل تشير إلى أن أكثر من دكتاتور في الطريق.

علينا ككتاب وشعراء وأدباء ومثقفين، أن نواصل طريق الأمل

بالطرق الخاصة التي لا يعرفها غيرنا

طرق الحرية

طرق التغيير.

طرق تقود كلها إلى ثورة فكرية وثقافية.

طرق لا تمر بالثكنات،

ولا في صالونات عائلية،

ولا في قبائل سياسية جديدة.

علينا أن نجهز أنفسنا كي نكون معارضة منذ اليوم لكل نظام قادم، وفي أي زمان.

الوطن في الطريق إلى الهاوية

ادفنوا موتاكم، وانهضوا.

لندق أبواب الأمل،

ولو بأعواد الثقاب.

ليلة 19 . 20، آذار، 2003